

محمود تيمور

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة



Bibliotheca Alexandrina



0145867

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية

٦ مكتبة الشايعي بالحامية الجديدة

محمود تيمور

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

استزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميز ت ٩١٩٣٧٧

الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

معامل البحث

- الأدب العربي في عصور التخلف .
- انتفاضة الشرق وأثرها في الأدب .
- نصيب الأدب من جهود البعثات العلمية .
- مرحلة التحرر القومي ومهمة الأدب فيها .
- تحرير المرأة واشتراكها في الميدان الأدبي .
- ترجمة الأدب القصصي .
- نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي وتطورها ..
- الرومانسية في الأدب العربي الحديث .
- أدب المهجر .

— ٤ —

- تجديد الشعر العربي .
- الصحافة ونهضة الأدب .
- تطوير النهضة .
- معركة القديم والجديد .
- القصة الفنية وروادها في الأدب العربي .
- أعلام الكتابة القصصية .
- المؤثرات في تقويم القصص الفني .
- محاولة الأدب تعصير اللغة والأسلوب والموضوع .
- التصوير الفني للمشكلات الاجتماعية .
- الأدب بين العامية والفصحى .
- مجمل الطابع الحاضر للأدب العربي .

إذا أردنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة التي تعتبر فترة الحضارة والتنشئة لهذا الأدب العربي الحديث ، جاز لنا أن نحددها بالستين المائة التي مضت فيما بين القرن الماضي ومنتصف القرن الحاضر .

والأدب العربي — كما هو معروف — أدب عريق ، اجتاز من عمر التاريخ مراحل طوالا ، إذ يتواصل نسبه خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد ، وهو إلى ذلك أدب عالمي استمد من مختلف ثقافات البلاد والأمم السالفة خصائص شتى ، وكان له من بعد أثر بعيد في كثير من الآداب العالمية الأخرى ، على تباين اللغات الشرقية والغربية ، في عديد من العصور .

ولكن هذا الأدب العربي مع ذلك كله ، تعاورته أسباب

— ٦ —

الضعف والخنول ، طوعا لما أصاب الأمة العربية في عهودها المغولية والمملوكية من عوامل التخلف والتفكك والجمود ، فانكشف الأدب أثناء تلك العهود المظلمة في نطاق ضيق ، يدور حول أغراض تافهة ، فلا يستجيب لما يضطرم في وجدان الحياة من جوهر إنساني صميم ، ولا يسهم بقدر كاف في توجيه اجتماعي إيجابي ، يعبر عما في نفوس الناس من آلام وآمال .

٢

واتنفض الشرق انتفاضته الجديدة ، ففتح عينيه على حضارة أوربية ذات نظم في السياسة ، وأوضاع في الاجتماع ، وحقوق للإنسان ، ومذاهب في الفكر ، وألوان من الأدب ، كانت كلها قد نمت وربت وازدهرت ، بفضل كفاح شعبي مرير ، وصراع عقلي مديد ، وأفانين من التجارب والممارسات ، في غضون مئات من السنين ، والشرق يومئذ منعزل يغط في نوم عميق ، تحت ضغط الظروف والملابسات التي أسلته إلى حكم استبدادي عانى منه ما عانى من ضروب الاضطهاد .

وقد دعمت هذه الانتفاضة الجديدة في ربوع الشرق عناصر كثيرة ، في مقدمتها ثلاثة : الأول ظهور المطبعة ، التي يسرت للتعليم أن ينتشر ، وأتاحت للثقافة أن تشيع . والثاني رعي البعثات

— ٧ —

التي عادت من «أوربا» ، تحمل مشاعل العلم والمعرفة في أضوائها الجديدة . والثالث بزوغ الوعي الشعبي الذي ساعد على تكوين الشخصية الوطنية .

وإن انتفاضة الشرق في ذلك العهد ، لم تكن بمنزلة «عصر النهضة» أو «عصر البعث» ، في الآداب الأوربية ، ذلك العصر الذي سمي «الرينيسانس» ، على ما بين الانتفاضة الشرقية والنهضة الأوربية من فوارق تستدعيها مقتضيات الأحوال واختلاف العوامل بين الشرق والغرب .

وكما حدث في عصر النهضة ، أو عصر البعث الأدبي في «أوربا» من قيام تلك النهضة على دعائم من الأدب الإغريقي الذي كان يسمى الأدب الاتباعي أو الأدب الكلاسيكي ، حدث في نهضة الأدب العربي أن قامت هي الأخرى على دعائم من أهمها ابتعاث القديم ، وإحياء التراث ، وتجديد الشعر بمحاكاة الفحول من الشعراء في أزهى العصور السوالمف ، وتقليد الأساليب البليغة والفنون الأدبية القديمة ، مثل «المقامات» ، والتعلق بالأحكام المنطقية التي كانت تسود الفكر العربي إبان ازدهاره في حضارة العرب ، والقوانين البلاغية التي تجمدت على أفلام العلماء والنقاد في مراحل شتى من الزمن .

ونظرة إلى شعر « البارودي » ، وهو أول شاعر من ثمان
 النهضة ، ترينا أن أكبر ما قام به هو أنه ارتفع بموضوع الشعر
 عن الأغراض الهزلية التي كان يسبح فيها الشعراء في عصور الركاكز
 والتخلف ، وأنه رد دياجعة الشعر وعموده وأغراضه إلى ذلك
 المستوى الذي كان لعباقرة الشعر العربي في ماضيه البعيد . ويفسر
 هذه النظرة أن « البارودي » نفسه أراد أن يخدم نهضة الشعر ،
 فتقدم لطلابه « مختارات » من أروع ما قال أولئك الشعراء في
 العهود الماضى ، فكان التجديد عند « البارودي » هو الرجوع إلى
 هؤلاء الشعراء ، والاستمداد بما تركوه ، وسبيل هذا عنده أن
 يستظهر الجيل الجديد نخبة الذخائر من ذلك الأدب العربي
 الكلاسيكي التليد .

وكما تجلى ذلك في جانب الشعر ، تجلى أيضاً في جانب النثر ،
 فقد كان جهد ما تتناول إليه أقلام الكتاب أن يصطنعوا أساليب
 البلغاء من المتقدمين أمثال « الجاحظ » و « الهمداني » و « القاضى
 الفاضل » ، على تنوعها ، واختلاف خصائص كل منها ، وكانوا
 يفاخرون بأنهم قد تدانوا من مناهلها ، واتخذوا منها مثالا يحتذى .
 بل لقد حاول أولئك الكتاب أن يحيوا فناً أدياً قديماً هو فن
 « المقامات » ، الذى برع فيه « الهمداني » و « الحريري » ، فيما مضى ،

وهو لون من ألوان القصص العربي . فنكتب «اليازجى» ، على ذلك ،
الغرار كتابه «بجمع البحرين» ، وهو إلى اللغة والتعليم أقرب .
وكتب «المويلجى» كتابه «حديث عيسى بن هشام» فكان تطوراً
لفن الأدب المقامى ، يلتجئ منحنى القصص الفنى ، ويعالج من الشئون
ما يتصل بالحياة أوثق الاتصال .

وعلى الرغم من أن العقلية العربية قد فضحت في عهدنا الراهن .
بضمائر من العلم الحديث ، والحضارة الجديدة ، وعلى الرغم من أن
الجهد الفكرى والإنتاج الأدبى فى شتى مواطن العروبة يسهم
إسهاماً كبيراً فى متابعة الفكر العالمى والأدب الإنسانى ، وفى التأثر
بمختلف التيارات التى تسفر عنها مناهج البحث وطرائق النقد فى
الشرق والغرب على السواء — على الرغم من هذا كله ، فإن هناك
نزعة عميقة الجذور فى كيان الوطن العربى بمدلوله الواسع ، وهذه
النزعة لا تبرح تهفو بالمفكرين وقادة الرأى إلى الاستمساك
بالأصول العريقة فى أدب العروبة ، وما أنتجت قرائح العرب على
مد العصور الخالية ، واعتبار هذه الأصول ينبوعاً عذباً نقياً للتنشئة
اللغوية وتربية الملكات وتقويم الشخصية فى هذا الجيل وفيما يستقبل
من الأجيال ، وإن هذه الأصول لتحمل فى التعبير عنها على ألسن
الكتاب والنقاد أشرف الكلمات دلالة وأوفرها سناء ، فهى تسمى .

تارة « الذخائر » ، وحينما « النفائس » ، وطورا « الكنوز » ، وأنا تسمى
« التراث » . وليس أدل على هذا النزوع العميق من أنك لا تسكاد
تجد مؤسسة ثقافية ، حكومية كانت أو أهلية ، إلا رأيتها قد جعلت
في طليعة أهدافها البحث عن هذه الأصول وتحقيق انصوصها
و تقريب مناهلها من الأنظار والأفكار ، متخذة لها في ذلك اسم
« البعث » أو « الأحياء » أو « النشر » ، أو ما إلى ذلك من الأسماء التي
تشعر بحالة ما ترمى إليه من هدف .

ولا ريب في أن لهذا النزوع مغزى كبير آ في واحة الرأي
العربي العام ، ذلك المغزى هو أن أبناء العروبة اليوم في كل مكان
حراس على أن يحتفظوا للشخصية العربية بذلك الطابع المستقل
الذي تجلّت عبقريته فيما شاد من حضارة فكرية وعمرانية تشرق
بها صفحات التاريخ . وقد كان في عناصر تلك الحضارة ما مهد
الطريق من بعد للحضارة العالمية التي تعيش فيها البشرية الآن .
فالعرب باعترازهم بلغتهم ، وإجلالهم لما خلفه لهم أسلافهم في هذه
اللغة من مدد عقلي غزير ، ييغون أن يقرأوا في وجدان كل عربي
أسس هذا الاعتزاز والإجلال ، وذلك إلى جانب إيمانهم بأن في
هذا التراث بزورا صالحة للارتفاع بها على تعاقب الأحقاب . وهم
من أجل ذلك ، ومن أجل وحدة الفكر العربي التي شملت أوطان

العروبة في عصورها المتطاولة ، يعتبرون الأدب العربي والثقافة العربية خلال تلك العصور غناء حياً يجب التزود منه للحاضر والمستقبل .

ولكن هذا النزوع الروحي الموصول بروابط تاريخية واجتماعية ، وشائج من وراثات الدم والنسب ، المستمد من الوحي الديني المقدس ثباتاً وركانة ، لا يقف سداً دون نزوع آخر يناظر ذلك النزوع قوة وحيوية وحرارة إيمان ، وهذا النزوع الآخر هو الإقبال على كل جديد من مناهج الأدب ، والاعتراف بما أفاضته العقلية الحديثة من مناهل المعرفة . فالفكر العربي الذي اتسع قبل ألف من السنين لحكمة الهند ، وثقافة الفرس ، وفلسفة يونان ، حتى استوعب ضروب المعارف والآداب في مختلف الأمم على اختلاف العهود ، يستبقى اليوم في كيانه هذه المرونة ، وسعة الأفق ، وخاصية الامتصاص ، ويعمل جاهداً على أن يشمل ما جد تحت الشمس من أدب ومن ثقافة ومن عرفان . وهو لا يؤمن بالمثل القائل بأنه « لا جديد تحت الشمس » ، ولكنه يقتدى بما جاء في الأثر من أن « الحكمة ضالة المؤمن ، فخير ما وجدها أخذها » .

كانت البعثات تعود إلى الوطن العربي مزودة بما أفادت من ثقافة أوربية جديدة، وبما اطلعت عليه من ألوان الفنون والآداب، فتفرغت لترجمة منتخبات من تلك الثقافة الجديدة والآثار العلمية والفنية، فأناحت للجيل العربي الناشئ أن يفتح عليها عينيه، ويملا منها عقله ووعيه، وقد سادت الترجمة ذلك العهد، وكان أكبر الجهد مصبوبا في ناحية تطويع اللغة العربية للتعبير عن المعاني والأغراض التي تحتويها الكتب المراد ترجمتها، ولذلك اتجهت الأنظار إلى ألفاظ اللغة العربية في مختلف عهود حضارتها لاستخراجها والاستعانة بها في أداء تلك المعاني والأغراض، وبخاصة في ميدان العلم، وبذلت المحاولات لصوغ ألفاظ جديدة يصطلح عليها لكي تسد حاجة التعبير في هذا الميدان.

ويمكن القول بأن الكتب التعليمية والمؤلفات التي تتناول فروع العلوم والصناعات كان لها نصيب الأسد من عناية المترجمين في ذلك العهد، أما الكتب الاجتماعية فلم يكن لها إلا حظ قليل، وأما الكتب الأدبية فكانت أقل حظا. ومرد ذلك إلى أن العصر كان عصر بناء وتكوين، فالحاجة إلى العلم أقوى، واكتساب الصناعة أجدى، وهذه المعارف العملية في الحياة هي الأساس في

إقامة صرح المجتمع المتحضر ، وتقويم العقلية التي تسير الزمن وتتطور معه ، ولم يكن الأدب في ذلك الحين إلا لونا من الترف الفكري ، يتخذ للمتعة والسوى ، فلم ينفسح له مجال رحيب في عهد الجدد والإنشاء والتعمير . ولذلك بقي الأدب العربي القديم — في عهد الترجمة للعلوم والفنون — هو المورد الذي يستقى منه الأدباء ، بيد أن هؤلاء الأدباء كان لهم فضل في إمداد المترجمين بالالفاظ والتعبيرات التي تذلل لهم عقبات الترجمة ، وترتفع بأساليبهم إلى المستوى الكتابي المقبول ، فأصبح من مهمة الأدب يومئذ خدمة لغة العلم ومؤازرتها بما يوفر لها دقة الأداء وسلامة التعبير . ومن ثم نرى أن الأدب والعلم يتمازجان في طائفة من أعلام ذلك العهد ، ونذكر من بينهم أعلام صوتا ، وهم : « رفاة الطمطوى ، و « على مبارك ، و « عبد الله فكري ، .

٢

وبعد مرحلة الترجمة التي كانت علمية في الأغلب ، بدأت النهضة تدخل في مرحلة أخرى تحريرية إصلاحية في شتى مناحي الحياة السياسية واجتماعية ودينية ، فطالعتنا قيادات فكرية متعددة المراكز تبشر بنظم وأهداف ، وتدعو إلى هدم وبناء ، وساعد على تقوية هذه القيادات الفكرية نشوء الصحافة ، وشيوع الطباعة ،

وقيام الأندية والجماعات والروابط والمجاس الخاصة لتلك الطبقة المستنيرة من أهل الرأى . وفى هذه الحقبة لمعت أسماء : « الأفغانى » و « محمد عبده » ، و « الكواكبى » ، و « قاسم أمين » ، و « سعد زغلول » و « لطفى السيد » ، فكان هؤلاء الفرسان أثر عميق فى توجيه الجيل الجديد وجهة جديدة فى فهم الحياة وتقويم المبادئ التى تسلم المجتمع العربى إلى تقدم وازدهار .

فى هذه المرحلة كانت مهمة الأدب الأولى خدمة تلك الأغراض الإصلاحية والنقد الاجتماعى والثورة على التخلف والضعف ، وحث الهمم على نفى غبار الخمول ، وتنفير النفوس من آثار الاستبداد والاستعباد . وأكبر ما تميّضت عنه تلك المرحلة من الإنتاج الأدبى فى ميدان الشعر هو القصيدة الوطنية أو الأخلاقية ، وفى ميدان النثر هو المقالة الاجتماعية . فالشعراء والمقالون كانوا يومئذ دعاة تحرير وتوجيه وإيقاظ .

أما فى غير هذا المجال فكان الأدب يتراعى فى بعض ما يعبر به الشعراء عن ذات أنفسهم من خواطر ، أو ما يصفون به ما تقع عليه أعينهم من مرثيات .

وكذلك كانت تتراعى لمحات أدب فنى فيما كان يقدمه « يعقوب صنوع » من مسرحيات مقتبسة ، وما كان يقدمه « عثمان جلال »

من مسرحيات أعلى مستوى في الاقتباس ، وما كان يقدمه «أبو خايل»
 القباني ، من مسرحيات مستلهمة من «ألف ليلة» وغيرها من
 تراث الأدب العربي القديم ، وما كان يجري به قلم «عبد الله
 النديم» من أقاصيص فكهة الروح ، شعبية الطابع . إلى غير ذلك
 من النظائر والأشباه التي تتفاوت في الجودة من ناحية التعبير ،
 وفي المستوى الفني من ناحية الموضوع ومعالجته .

٥

ولقد كان من مظاهر عصر النهضة الرغبة في تحرير المرأة ،
 وذلك بإنهاء عهد الحجاب وإشاعة السفور ، بحيث تستطيع المرأة
 أن تسهم في ميدان العمل وفي بناء المجتمع ، والتقاليد يومئذ تحول
 دون خروج النساء ، واشتراكن مع الرجال في علم أو أدب أو
 صناعة ، وتقصر عملهن على إدارة دفعة الأسرة داخل جدران
 البيوت بمعزل عن أضواء الطريق . وتجلت بشائر تحرير المرأة
 في بزوغ شاعرة هي السيدة «عائشة التيمورية» التي كتبت أشعارها
 باللغات العربية والفارسية والتركية ، وألفت بعض القصص على
 نمط «ألف ليلة» ، وقد خلفتها في حمل لواء الأدب النسوي
 الحديث السيدة «ملك حنفى ناصف» التي ظهرت براعتها في فصول
 كتبها في الصحف باسم «باحثة البادية» ، وتعتبر «مارى زيادة»

التي ظهرت فيما بعد باسم « الأنسة مى » ، نموذج المرأة المتحررة التي اكتملت ثقافتها العربية والأوربية ، وأوتيت موهبة التعبير فى مستوى فى أصيل . وقد انتعش الأدب النسوى بعد ذلك بفضل تعليم المرأة ودخولها الدراسة الجامعية واشتراكها فى ميادين الثقافة وفروع الأعمال ، فأصبح من النساء عدد كبير ، فيه من يشتغلن بالصحافة ، وفيه من يمارسن الأدب ، وفيه من يكتبن القصة ، وفيه من يشاركن فى البحث والتأليف والتعليم .

٦

وقد نبئت أثناء هذا العهد نائبة من المثقفين ثقافة أجنبية ، اطلعوا على ضروب من آداب الغرب ، وكثير من هؤلاء ينسبون إلى تلك الرقعة العربية الواسعة التي كانت تسمى « الشام » ، حاوية فلسطين وسورية ولبنان ، فعكفوا على الترجمة ، وقربوا إلى العربية جملة من الأدب القصصى ومن أدب المسرح ، فلقى هذا اللون الجديد حفاوة وقبولا عند القراء العرب ، وتهاافتوا عليه يطلبون منه المزيد . وهكذا أخذت ترجمة الأدب تقوى وتزدهر ، وتحتل فى عالم الصحافة وفى عالم النشر أعز مكان .

وقد بلغ من كثرة الترجمات فى تلك الحقبة وما تلاها أن إحدى دور الكتب العامة فى الشرق استطاعت إحصاء عشرة

آلاف قصة بين طويلة وقصيرة ترجمت إلى العربية قبل الحرب العالمية الأخيرة .

وليس من عجب أن تلقى القصة بمنهجها الغربى هذه الخطوة من نفس القارىء العربى ، وأن يتزاحم عليها ليروى بها ظمأه إلى الأدب الفنى ، فإن الشعب العربى شعب قصاص بطبعه ، والقصة عريقة فى أدبه ، تسرى فى روحه ، وله منها وراثت قديمة مختلفة المنابع . وحسبك أنه ذلك الشعب الذى اتخذ فى شتى عصوره السوالف من القرآن مثله الأعلى ، وهو أحفل مصدر للقصص التاريخى الرفيع . وحسبك أيضاً أنه ذلك الشعب الذى تمخضت موهبته الفنية عن حشد زاخر من الأسمار والنوادر والأساطير انتهت به إلى ذلك اللون من القصص الشعبى الذى عرفه العالم أجمع ، وخاصة ألمع جوهرة فيه ، وهى حديث « شهر زاد » فى « ألف ليلة وليلة » .

وفى هذه الحقبة ترجمت آثار قصصية تتفاوت قيمها الفنية ، فكان منها الاصيل ، وكان منها الهزيل . وكذلك تعددت مصادر هذه الآثار المترجمة ، فكان منها الإنجليزى وكان منها الفرنسى ، على أن المترجمات عن الفرنسية كانت هى الأكثرية الغالبة . وقد عرف القارىء العربى بفضل هذه الترجمات أعلام الأدب الأوروبى ،

(٢٢)

أمثال « شكسبير » و « مولير » و « راسين » و « كورنى » و « لامارتين » .
و « شاتوبريان » و « فكتور هوغو » ، يقدمها إليهم كتاب لامعون .
أمثال « نجيب الحداد » و « فرح أنطون » و « خليل مطران » .
و « حافظ إبراهيم » و « أحمد زكى » و « محمد عوض محمد » .

٧

ولم تلبث الأنماط القصصية الأوربية أن أثرت فى واعية
السكاتب العربى ، فهبت نفسه إلى محاكاتها ، ومواتاة لغته القومية .
بمثالها ، فكانت أولى محاولات المحاكاة الناجحة متصلة بميدان
الرواية التاريخية . ذلك أن « جورجى زيدان » أحد أقطاب
الصحافة الأدبية فى صدر النهضة كان له فضل التنبه إلى تقديم تاريخ
الإسلام فى إطار روائى يدور أكثره حول محور غرامى ، وقد
حرص على التزام ما سجله التاريخ من وقائع وأحداث ربط بينها
بخيوط قصصية يتجاذبها أبطال من عالم الحقيقة أو من وادى الخيال .
ولا ريب فى أن هذا الإطار الروائى عليه مسحة من القصة فى مدلولها
الحديث ، بما تقوم عليه من عناصر الحادثة والعقدة والنهاية ، وما
يتصل بهذه العناصر من تدبير المفاجآت وبث روح التفكيك
والتشويق ، ولكن هذه الروايات مع ذلك من الناحية الفنية البهتة .
ومراعاة المستوى القصصى الرفيع تعتبر مرحلة أولية للقصة التاريخية .

في الأدب العربي ، وهذه المرحلة هي التي مهدت الطريق من بعد لطائفة من الكتاب والأدباء تناولوا أحداث التاريخ وشخصياته ، على أسس فنية من التحليل النفسي والتفسير الاجتماعي ، ومن استبطن ما وراء الظاهر من الوقائع والأحداث . ويحضرني في هذا المقام ما قدمه « إبراهيم رمزي » في « باب القمر » و « الحاكم بأمر الله » ، وما قدمه الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » من قصص شتى مستقاة من تاريخ العرب قبل الإسلام ، وما قدمه « الدكتور طه حسين » في كتابه « على هامش السيرة » و كتابه « الوعد الحق » . وأسمح لنفسي بأن أشير إلى بعض محاولات لي تناولت فيها بالمعالجة والتحليل حياة « امرئ القيس » عبقرى الشعر في العصر الجاهلي ، وحياة « الحجاج » أشهر الحكام في عصر « بني أمية » ، وحياة « عبد الرحمن الداخل » الملقب « بصقر قریش » وهو أحد الذين أقاموا دولة في بلاد « الأندلس » التي أطلق عليها فيما بعد اسم « الفردوس المفقود » . وأهم ما في هذه المسرحيات التاريخية أنها نحت منحى الاستلهام النفسي ، والتعليل الاجتماعي ، والكشف عن حقيقة البطولة الإنسانية في موطن ضعفها وفي ذروة قوتها .

٨

ولقد كانت هذه السنوات التي قوى فيها تعرف الأدب العربي إلى القصص الغربي امتدادا لعهود سياسية من الضغط والاضطهاد هانت فيها الأمة مرارة التحكم الأجنبي ، فسادت موجة من المشاعر الحزينة تعبر عن المسكينة والانكسار ، وأنست النفوس إلى الاسترسال في الحديث عن مآسى الحب والفقر والعادات وآثار التخلف الاجتماعى ، فانعكس هذا كله على الكتّاب القصاص والمترجم القصصى جميعا . ومن ثم رأينا القصة تأليفاً وترجمة تنساق فى هذا التيار ، ورأينا الكتّاب تتودد إلى الأسماح بأمثال هذه العنوانات الشاجمية : « اليتامى » و « البؤساء » و « المساكين » و « العبرات » و « الذبائح » و « الضحايا » و « الأبرياء » و « رسائل الأحرار » و « آلام فرتر » و « الأجنحة المتكسرة » . وكذلك كان من هم الكتّاب أو المترجم لما يشار القصص ذوات الخواتيم الفاجعة المثيرة ، تلك القصص الحافلة بالاشجان الجسام ، فيها تنصب ألوان النجس والبؤس على رءوس الأبطال ، فيسقطون فى ميدان الكفاح ، مضرجين بدمائهم تحت مطارق الظلم والعنت ، تحف بهم عواطف الإشفاق والرثاء !

وقد نبغ فى تلك السنوات أديب فصيح الأسلوب ، ناعم العبارة ،

يحسن تصوير الشعور الحزين ، ذلك هو والمنفلوطى ، فألف بعض القصص على هذا الطراز ، وصقل بأسلوبه المتين قصصا مترجمة ، فكانت هذه وتلك ألحانا طربت لها الأسماع ، ومالت إليها النفوس ، وظلت أهازيج رائعة ترنم بها الجيل الماضى ، ووجد فيها شفاء لروح المكلومة وقلبه المسكروب . واليقين أن والمنفلوطى ، كان يعرف ذلك من شأنه ، إذ قال فى مقدمة «عبراته» : «الاشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو كثيرا من بؤسهم وشقايتهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات لعلمهم يحدون فيها تعزية وسلاوى» .

ولا مندوحة لنا من الجهر بأن هذه الآلام والمآسى والفواجع التى دار حولها يومئذ الأدب عامة والأدب القصصى خاصة ، تشيع فيها السطحية والعمومية ، ولا تتناول من النفس دقائقها الخفية وأسرارها الدفينة ، وطريقة العرض فيها لم يكن لها من قوة الأداء ومنطق التعليل ما يرفع مستواها الفنى ، وما يمنحها نفحة الخلود .

فى تلك الفترة علا صوت التعبير الذاتى ، والخواج الشخصية ، وتزاحمت أنغام الشكوى والأنين ، ومناجاة الأطياف ، والإيغال فى وصف العاطفة ، والجنوح إلى لون من الروحانية والتصوف ، وإطلاق العنان للأخيلة والأوهام . وأذكر أنه كان ثمة موضوع

لا يكاد يسلم من السكتابة فيه أديب ، ولا من التغنى به مطرب ،
ذلك الموضوع هو نداء الليل ومسامرته ، وبشه ما فى الصدر من
وجد ولوعة وحنين .

وفى مستطاعنا أن نقتبين فى الأدب فى تلك الفترة سمات
«الرومانسية» مع اختلاف دوافع توافرها فى الأدب العربى يومئذ
ودوافع توافرها فى العصر الرومانسى للأدب الأوروبى . فإن عصر
الرومانسية فى أدب الغرب مرجعه إلى انتقال المجتمع الأوروبى من
عصر الأرستقراطية والإقطاع إلى عصر الطبقة الميسورة أو الطبقة
الوسطى «البرجوازية» واستقبال عهد الآلة التى تطورت بها
أوضاع الاجتماع والاقتصاد ، وهان بها شأن الفرد فى العمل الفنى ،
فضاق الفنان بالقوالب الآلية التى غزت عصره ، ورأى نفسه قد
غدا قالبا مثلها تحكمه حياة معقدة لا شخصية له فيها ولا كيان ،
فتطلع إلى تعبير تعترف فيه الفردية ، ومن ثم تجلّى فى الأدب الرومانسى
الاعتداد بالعاطفة والإحساس والخيال ، والانتقاض على
أوضاع المجتمع ، ومناصرة الفسكر الحر ، والاتجاه إلى عبادة الطبيعة
وما فيها من جمال ، هربا من وطأة الحياة المادية وسلطان
«الآلة» ، ومن القيود فى الشكل ، ودعمًا للشخصية المستقلة ،
واستنقاذا للفردية الضائعة . أما سمات «الرومانسية» فى الأدب

العربي إذ ذاك ، فقد كان الدافع إليها ماضق به المجتمع العربي من كبت وحرمان وضغط سياسي وركود اجتماعي ، وضعف في المستوى العلمي والاقتصادي ، فتأقت النفوس إلى تنفيس وترفيه ، بالاسترسال في متع الخيال ، والهيان مع العواطف الملتتهبة ، فرارا من جفاف الواقع وجهوده ، وأنسا برحيق الاوهام في كتوس من ذهب وهاج . وعلى الرغم من اختلاف الدوافع بين نشوء المذهب الرومانسي في الأدب الاوربي القديم ونظيره في الأدب العربي الحديث ، نجد المشابهات بينهما واضحة كل الوضوح ، في المظاهر والنتائج ، فكلاهما يقوم على العاطفة والخيال ، وكلاهما يؤثر انطلاقة الفكر وحرية التعبير ، وكلاهما ينشد تقويم الذاتية الضائعة ، واستنقاذ الشخصية مما يحيط بها من قيود وأغلال .

٩

وبينما الأدب العربي في الشرق يومئذ يستغرق في رومانسيته ، إذ هبت عليه نفحات أدب عربي رومانسي أيضاً من وراء المحيط ، حيث الدنيا الجديدة ، فقد كان هنالك في « أمريكا » مهجر الجماعات العربية من « لبنان » و « سورية » ، فنشأ منهم أدباء تأثروا بالحياة الغربية وآدابها ، واعتمدت في نفوسهم مشاعر الغربة والحنين إلى الاوطان ، فافاضوا في التعبير عن نزعاتهم في منحى أوفر حرية

وأبعد انطلاقا ، حتى إنهم في أساليبهم لم يبالوا ما تواضع عليه علماء العربية وأدباؤها من الأصول والقواعد كل المبالاة . وكان في الأدب المهجري فن شعري يجرى في الجملة من حيث الشكل على أوزان الشعر العربي وقوافيه ، وأما من حيث الموضوع ، فقد كان يحفل بالطريف المستحدث من المعاني والأغراض . على أن تلك النابتة الجديدة من أدباء المهجر قد ابتدعت ما سميناه « الشعر المنشور » وهو محاولة لسياقة المعاني الشعرية على نمط جديد يختلف عن القصيدة العربية الاتباعية الكلاسيكية في ناحيتين : الأولى التحرر من الوزن والقافية ، والأخرى وحدة الموضوع وتسلسل أفكاره تسلسلا نفسيا متداججا لا افتعال فيه ولا استطراد . وقد تميز الأدب المهجري بالحدة والطرافة ، وبرهافة الحس ورقة الشعور ، وبالسلاسة والعذوبة . وكان في جملة ما جديدا اعتدى به الأدب العربي ، وجرى في شرايينه ، فأورثه الحيوية والحرارة والانتعاش ، ولا ينسب تاريخ الأدب الحديث أعلام الأدباء المهجريين ، وفي مقدمتهم « جبران » و « الريحاني » و « نعيمة » و « إيليا أبو ماضي » .

١٠

وكان الشعر العربي وقتئذ قد استقبل عهداً جديداً من الازدهار أسلمته إليه وثبة « البارودي » الذي يعتبر مجدد الشعر في مطلع العصر الحديث .

وإذا كان «البارودي» قد انحصر تجديده في جانب قوة النسيج ، وفصاحة اللفظ ، وخفولة التعبير ، محاكاة لأعلام الشعراء في العصور العربية الراهية ، فإن الشعراء الذين قفوا على أثره قد استفادوا أيما استفادة من الرقي العلمي والعقلي والاجتماعي في عصرهم الحديث ، فأصبح التجديد في شعرهم شاملاً للموضوعات ، إذ تناولوا أحداث السياسة ، وعبروا عن الحركات القومية ، ونددوا بما كان شائعاً من الظلم والاستعباد ، وبما كان فاشياً من المساوىء الأخلاقية والاجتماعية ، وذلك كله إلى جانب تعبيرهم الفنى عن إحساسهم نحو جمال الطبيعة وعحسن السكون ، وعن خواجهم النفسية التي يستجيبون فيها للحياة ، ويعالجون مشكلات المجتمع البشرى ، ويهيمون في سرائر الوجود .

ونحن حين نذكر «شوقي» و«حافظ» و«مطران» و«صبرى» و«بشارة الخورى» و«الزهاوى» و«معروف الرصافى» و«عبد الرحمن شكرى» و«العقاد» و«المسازنى» وأضرابهم ، لا ننسى أنهم صفوة من الشعراء أتاحت لهم ألوان ثقافية متشعبة ، بفضل ما قدموا في العربية من تراث الأدب العربى ، وبما ترجم من تناج الفكر الأوروبى ، ومنهم من قرأ في غير العربية ذلك النتاج الفكرى ، فارتفع بذلك مستواهم العقلى ، ونضجت أذواقهم

الأدبية ، وظهر أثر هذا النضج والسمو فيما طرّقوا من موضوعات ،
وما سبّحوا فيه من أخيلة ، وما نظموا من قصيد .

كثير في هذا الشعر التغنى بالأخلاق ، وبالمثل العليا ، والإشادة
بأبجد الماضي ، سواء أكانت من جانب العرب ، أم من جانب
الفراعة ، كما قوى التمجيد للحرية ، وتقديس الفداء ، والإعزاز
لمواقف البطولة الوطنية والجهاد من أجل العقيدة والرأى ، وبذلك
صارت دواوين أولئك الشعراء مرآة ينعكس عليها في جلاء
ما اضطرم في الوطن العربي من كفاح قومي ، ونشاط فكري ،
وأمان وطنية ، ومن مثل سمت إليها الأفسكار في هذا العصر
الحديث .

ولا يمكن القول بأن الشعر العربي في جملته قد استمد في تجديده
في تلك الحقبة من الشعر الأوربي شيئاً يذكر ، وإن كان الشعراء
قد استفادوا على وجه عام ثقافة العصر الحديث . ولعل ذلك لأن
الأمة العربية التي رحبت كل الترحيب بترجمة ألوان شتى من أدب
الغرب ونتاجه الفكري ، لم ترحب كثيراً بترجمة الشعر الغربي ،
وإذا حاولنا أن نتعرف السر في ذلك وجدناه في ناحيتين :
الأولى صعوبة ترجمة الشعر من لغة إلى لغة ، فالقصائد تفقد في
اللغة المترجمة إليها إيقاعها وموسيقاها وما يكمن فيها من خصائص

التعبير وإيجاءاته ، والجمال الفنى فى الشعر مرجعه إلى الإيقاع والموسيقى وخصائص التعبير والإيجاء . والناحية الأخرى للعزوف عن ترجمة الشعر الأوربى إلى اللغة العربية أن الشعر العربى عريق فى تقاليده وسماته ، وأنه أصيل فى تناوله للشاعر والخلجات على أوسع نطاق ، وأن لغته قوية متقنة فيها الرقيق الرهيف ، وفيها الجزل المتين ، وأن الشعراء العرب على تعاقب العصور قد مروا على الأداء الشعرى وبرعوا فيه ، وأنهم قد تفننوا فى موضوعاته ، فلم يدعوا وصف الطبيعة ولا الانطلاق مع أهواء النفس ، ولا تلبس مظاهر الجمال فى المعانى والصور ، ولا التعمق فى فلسفة الحياة ، ولا تصيد أسرار الحكمة ، ولا تمثيل الغرائز والأخلاق ، ولا الكشف عن تجارب البشرية . ولذلك لم تسكن للشعر الأوربى سوق رائجة عند القارىء العربى ، بل إنه لم يكن لشعر غير عربى أية حظوة عنده ، إلا ما كان لتلك المقطعات التى سميت « رباعيات الخيام » . وربما كانت العلة فى حظوتها أن روحها قريب من الروح الشرقية التى يتسم بها أدب العرب ، أو أن ترجمة هذه الرباعيات شعراً كانت أقرب إلى التأليف منها إلى الترجمة فى اللسان العربى .

ويظهر أن اعتزاز الأمة العربية بمجد الشعر العربى هو الذى قضى حتى الآن على مختلف المحاولات التى أريد بها مجانبة الأوضاع

والأشكال المتوارثة للشعر العربي . وما لاشك فيه أن القارىء العربي لم يأنس بتحرير الشعر من الوزن والقافية ، ولم يرحب كذلك بالشعر المنشور ، أو بالشعر المرسل . وربما كان ذلك لأن أوزان الشعر وقوافيه لم تسكن في أول نشوئها وليدة صنعة أو زخرف اتخذها الأدباء في عصور المحسنات البيانية والتزاويق اللفظية ، بل كانت هذه الأوزان والقوافي في قصائد الشعر العربي وليدة الفطرة الإنسانية في مناجاة النفس على رحاب الصحراء العليقة ، وتحت سمائها الدائمة الصحو والإشراق . ولذلك وجد فيها القارىء العربي - من بعد - استجابة لما تهفو إليه نفسه من إيقاع موسيقى ينسجم مع العاطفة والوجدان ، ومن ثم استمسك بهذه الأوضاع الشعرية ، لأنه استطاع بما فيها من مقاطع أن يلحن تلك الجمل التي تصور العواطف والنزعات والأحاسيس . فسكان هذا الشعر العربي يجعل من كل قارئ مرتل له موسيقيا بلا أداة ، إذ يجد في أوتار الأوزان والقوافي والمقاطع رنين الأنغام وإيقاع الألحان التي تهز نفسه فتتحرك ما يمكن فيها من شجو ، وتواتيها بما تهفو إليه من طرب .

وليس معنى هذا أن نقض من شأن التجديد الذي لحق الشعر العربي الحديث ، فقد تناول من الأنواع الأدبية ما لم يكن يتناول من قبل ، وقد اتصل بمختلف المذاهب الفنية عن قرب أو عن بعد ،

وبذلك يمكن القول بأن الاتجاهات الفكرية والثقافية والأدبية التي تأثر بها الجيل الحديث من جانب الغرب قد كان لها صدى ودوى في تطوير الشعر العربي ، وقد ظهرت آثارها في نتائج الشعراء .
ويكفي أن نشير إلى أن « شوقي » شاعر العصر الحديث قد أنشأ المسرحية الشعرية الراقية في ديوان الشعر العربي ، إذ أخرج « عنتره » و « مجنون ليلى » و « قهبيز » و « مصرع كليوباترة » و « على بك الكبير » وغيرها ، وهي مسرحيات تجمع إلى مهارة النظم ، وروعة الأخيصة الشعرية ، وتنويع الأوزان والقوافي بحسب المعاني والمواقف ، حبكة فنية لها قيمتها ، وحواراً روائياً خلايياً ، إلى جانب قدرة الشاعر على تمثيل المواقف التاريخية ، وتصوير الشخصيات على نحو مقبول ، وتعليل التصرفات والأحداث تعليلًا لا يخلو من سلامة المنطق ، وموافقة الطبع البشري . وعلى الرغم من أن هذه المسرحيات كانت فتمتجا جديداً في الشعر المسرحي ، وشقا لألفقه في الأدب العربي ، فإن تلك البواكير توافر لها الحظ من النضج والإيناع . و « شوقي » هو الذي مهد الطريق للشعراء من بعده كي يتابعوا إرث الشعر العربي بذلك اللون من المسرحيات الشعرية . وقد تفوق من بينهم الشاعر « عزيز أباظة » الذي اتخذ نهج « شوقي » إماماً له : فأخرج

« قيس لبنى ، و « العباسية ، و « الناصر ، و « شجر الدر ، وغيرها
من روائع المسرحيات التي عقدت له لواء الإمارة الشعرية في هذا
الميدان .

وكان من ظواهر التجديد في الشعر محاولة تطويع القصيدة
العربية للتعبير الإيحائي وفق مذهب الرمزية في الأدب الفنى، ويتميز
هذا اللون من الشعر بدقة الفكر ، وعمق التأمل ، والتمرد على
الظاهر من الأوصاف ، والمطروق من المعانى ، والمبذول من
الأغراض ، ففي هذه القصائد الرمزية تصيد للباطن مما يعتمل في
النفوس ، وما يكن وراء الحس ، حيث تتشابك الانطباعات
وتتداخل ، وأداء ذلك أداء رمزياً دون تصريح ، وذلك بالجنوح
إلى الأطياف والظلال ، والاعتماد على النغم الشعري الرفاف .
ويعتبر الدكتور « بشر فارس » بين من مارسوا هذا اللون أكثرهم
فهما له ، وإيماناً به ، وتمجيذاً لمنزلته بين مذاهب التعبير الشعري .

١١

وإذا كانت المعاهد التعليمية المختلفة قد قامت بقسط كبير في
تثقيف الجيل الذي اضطلع بأعباء النهضة الحديثة، وإذا كانت حركة
التأليف والنشر قد غدت تلك الجهود التربوية في تنشئة الجيل
وإمداده بالوعى العلمى والثقافى، فإن هناك الصحف اليومية والمجلات

الأسبوعية والشهريّة التي يرجع إليها أكبر الفضل في تثقيف الجمهور العام وإروائه من مناهل العلوم والفنون والآداب على تباين مصادرها الشرقية والغربية ، وعلى اختلاف ألوانها القديمة والحديثة .

كانت الصحافة وسيلة ناجحة للتنوير والتوجيه ، وذلك ليسرها على الكاتب والقارئ معا ، فالكاتب يجد فيها ميدانا قريب التناول للتعبير عن رأيه ، ونشر ما تجود به القريحة ، وبسط ما يهدى إليه البحث والدرس ، إذ ليس الطريق ممهدا أمام كل كاتب لإظهار ذلك في كتاب يطبع . والقارئ كذلك لا يتعذر عليه أن يحصل على صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية يستمتع فيها بالوان ثقافية مختلفة ترضى أذواق ، وتلائم شتى المستويات .

وقد تعددت الميادين الصحفية ، بين دينية وعلمية واجتماعية وأدبية وفنية ، ولا يستطيع باحث في مصادر الاتجاهات الأدبية للعصر الحديث أن ينسى الأثر الكبير الذي أحدثته في رسم تلك الاتجاهات المجلات الشهرية والأسبوعية ، كالمقتطف والهلال والمنار والهداية الإسلامية والزهور والسفور والسياسة الأسبوعية ولغة العرب والمشرق والجديد والحديث والمجلة الجديدة والرسالة والثقافة وعشرات غيرها ، ولا الصحف اليومية كالأهرام والجريدة واللواء والمؤيد والبلاغ وسواها .

إن هذه المجلات والصحف كانت في ذلك الزمن بمثابة جامعات منتظمة ، تتطايّر منها المعارف المبسطة ، والآراء الجديدة ، والأفكار المتحررة ، والتوجيهات الثقافية ، والآثار الفنية ، على أوسع نطاق . وكثير من رجال الفكر والأدب كانت ينايبيهم فيما اكتسبوا من علم ومعرفة وإطلاع هي الصحف والمجلات أكثر مما كانت ينايبيهم معاهد تعلموا فيها أو كتباً تدارسوها ، ولا شك في أن الصحافة يومئذ كانت تسد النقص والحرمان الذي يشعر به المجتمع الشرقي من ناحية التعليم الجامعي الذي كان مفقوداً أو محدود المجال .

وهذه الصحافة هي التي استطاعت أن تتجه بأسلوب الكتابة اتجاهها بطوعها للتعبير عن كل ما يتصل بالحياة الفكرية ، والكفاح الاجتماعي ، وتبسيط العلم والمعرفة للجمهور العام .

وقد استفادت بذلك اللغة العربية مرونة وسلاسة وقدرة على الأداء السهل السائغ الدقيق الخافل بالمعاني والأغراض .

وكذلك مما يذكر للصحافة أنها هي التي ازدهر في حقليها ذلك الفن الكتابي الذي أطلق عليه اسم « المقالة » ، فكانت أشبه بالرثاء التي تعين على التنفس في يسر ، ووجد الكتاب والأدباء فيها مجالاً للإفصاح عن خواطرهم والتعبير عن أفكارهم ، وأصبحت المقالة غذاء سهل الإعداد على الكاتب ، سهل الهضم للقارئ . وبلغ من

خطر « المقالة » أن صارت مصدراً للتأليف ، وكثير من أمهات الكتب الأدبية العصرية إنما هي مجموعة مقالات ، . ولقد أدركت « المقالة » ذروتها الفنية على أقلام أدباء وكتاب أتقنوا صوغها وأحسنوا عرضها ، وفي مقدمتهم « لطفى السيد » في مقالاته التي جمعت في كتابه « المنتخبات » ، و « التأملات » ، والدكتور « منصور فهمي » في مقالاته التي جمعت في كتابه « خطرات نفس » ، و « عبد العزيز البشري » في مقالاته التي جمعت في كتابه « المرأة » و « كتابه المختار » ، و « كتابه قطوف » ، وكذلك « المنفلوطي » في « النظرات » ، و « العقاد » في « الفصول » وغيره ، و « المازني » في « قبض الريح » ، وسواه ، و « أحمد أمين » في « فيض الخاطر » ، و « الرافعي » في « وحي القلم » ، و « الزيات » في « وحي الرسالة » ، وأمثال هؤلاء كثير .

١٢

ويعتبر الربع الأول من القرن العشرين في حياتنا الآبية مرحلة حث وتخطيط وإلقاء للبزور المختلفة ، وتعهد لها بالسقيا ، وتجربة لنباتها في حقول الأذهان . فكانت هناك نهضة إصلاح دينية تعالج تنقية المعتقدات من الخرافات والأوهام ، وتصحيح الفهم لروح الدين وسلطانه على المجتمع السليم . ولا ينسى في هذه الناحية فضل (٣)

الرائد الأول « جمال الدين الأفغانى » ، وحامل الشعلة من بعده .
 « الشيخ محمد عبده » ... وكانت هناك أيضاً نهضة لإحياء الثقافة
 العربية القديمة وتحقيق التراث الذى تركه أعلام الفسك والأدب فى
 الحضارة الإسلامية ، وقد تولى إذكاء تلك النهضة وحمايتها من أن تقضى
 عليها الدعوات التجديدية المتطرفة طائفة من أعلام البحث والتحقيق .
 أمثال : « أحمد تيمور » و « شكيب أرسلان » و « محمد كرد على » ...
 وكانت هناك أيضاً نهضة علمية تحاول الخروج بالتعليم من نطاق
 إعداد موظفين محدودى المعرفة إلى آفاق البحث الحر والمشاركة
 فى العلم فى ميادين الرحبة التى جاءت بها الحضارة الحديثة . وقد تجلّى
 مظهر هذه النهضة فى إنشاء « الجامعة الأهلية » التى أصبحت فيما بعد
 هى « الجامعة المصرية » الرسمية . وكانت هناك أيضاً نهضة تثقيفية
 عامة تجلّت فى التصانيف المختلفة وفى المجلات والصحف اليومية
 المتعددة ، فرأينا مثلاً « شبلى شميل » يبشر بنظرية التطور ،
 و « يعقوب صروف » يغذى القارئ العربى بمادة علمية مبسطة ،
 و « لطفى السيد » يوجه الأفكار إلى الأسس التى تتوافر بها تربية
 الفرد والجماعة . ومن هذا كله شاعت فى الأمة روح علمية منهجية
 عالية فى مستوى البحث والدرس ، تتناول مشكلات الحياة
 وأوضاعها وما يتحقق به التقويم والتجديد والإصلاح ، كما شاعت .

فى الوطن العربى روح استقلالية تنفر من العبودية والتبعية ،
وتحاول إبراز الشخصية ، وتنشد التحرر والهيمنة على أجهزة الحكم
وتوجيهها وجهة تلائم منازع النهوض ، وأصبح الأسلوب الكتابى
الذى يعبر عن هذا كله أسلوباً واقعياً زائفاً بالموضوعات الوثيقة
الصلة بأعماق المجتمع ، المصورة لآماله وآلامه ، وأخذ الكتاب
يترفعون عن الزخارف والمحسنات اللفظية ، ويأبون الصنعة
والتكلف فى التعبير ، ويرأون من الإغراق فى الأختلة التافهة ،
ويتخلصون من الدوران حول الأغراض المكررة المبتذلة المحصورة
فى حدود من الأفكار العائمة والعلاقات الفردية السطحية .

١٣

وقد التقت هذه العوامل مجتمعة مع فئات من أبناء الأمة ثقفتهم
معاهد تعليمية أجنبية قامت فى أرجاء الوطن العربى ، وفئات أخرى
من الشباب الذين عادوا من أنحاء الغرب بعد أن اغترفوا من لغاتها
ومن ثقافتها ما اغترفوا ، وفى الوقت نفسه كان هناك « الأزهر »
و « دار العلوم » وغيرهما من معاهد تعمل على حفظ اللغة العربية
وإحياء علومها المتوارثة ، وتقيم منها سداً منيعاً للاحتما من هجمات
الأفكار المتطرفة فى الدين والأدب والاجتماع ، وكان اجتماع
العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية على هذا النحو ،

وتباين المنازع بين المفكرين وحملة الأقلام يوم ذاك ، إذانا بنشوب معركة القديم والجديد، بين الذين يؤمنون بالثقافة العربية من ناحية ، والذين يؤمنون بالثقافة الأوروبية من ناحية أخرى .

ولعل روح النهضة ، والخروج من هذا السبات الطويل الذى عاشت فيه بلاد العروبة ردحا من الدهر، وتفتح الأعين على حضارة غربية ساطعة الأضواء تبهر الأنظار - لعل ذلك كله أشعر الرأى العربى العام بما يسميه علماء النفس «مركب النقص» ، وكان لذلك أثره فى كل من حزب اليمين وحزب اليسار بين قادة الفكر فى ذلك العصر .

فالمحافظون فى الصف الأيمن دفعهم «مركب النقص» إلى الخشية من هذه الأمواج الدافقة التى اندفعت إلى الشرق من جانب الغرب تحمل حضارة جديدة فى كل شأن من شئون الحياة ومرافقها الاجتماعية ، فانبعثوا يدعون إلى المحافظة ، ويحذرون من التهاافت على البريق الخلاب ، حتى لا يطغى من ورائه دفق الأمواج على كل مقومات الأمة من عقائد وتقاليد وتراث عقلى وأدبى ، فيصبح العربى طوعا لهذا الطغيان غريبا فى كيانه ووجدانه ، إذ تفتنه مدينة الغرب بالآلامها ، وتجذبه نحوها ، فلا يبقى له من وجوده الموروث أثر .

والمجددون في الصف الأيسر دفعهم «مركب النقص» أيضاً إلى الحملة على كل قديم ، والإزراء بكل موروث ، إذ هالهم أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة الجديدة هذا التخلف البعيد ، وسمت همهم إلى ملاحقة الركب ، فأغراهم ذلك بأن ينادوا بنبذ كل ما صاحب الأمة في عهود تخلفها من ثقافة جامدة ، ونظريات عتيقة ، لم تعد في نظرهم تصلح لعصر البعث والإحياء ، بل لقد كانوا يحسبون أن تلك الثقافة وهذه النظريات هي علة التخلف والضعف الذي منيت به الأمة ، وهي التي عوقتها عن التقدم والنمو والازدهار .

ولقد كان لمركب النقص الذي شعر به كل من الحزبين المتباينين في ميدان الفكر ، أثره البالغ في إنعاش حركة الأدب ، وإذكاء نشاط الفكر ، والتمرس بطرائق النقد ، ولأن دلت معركة القديم والجديد في هذه المرحلة من الحياة العقلية بين أنصار المحافظة والدعاة إلى التحرر على شيء ، إنها لتسدل على أن الشعب فيه حياة وفيه انتفاضة وفيه يقظة ووعي ، بيد أن ذلك كان يختلف اتجاهات وميولا وآراء بحسب اختلاف يتابع الثقافة والعقلية للأمة في تلك المرحلة التي لم تتوحد فيها مناهج التربية والتعليم . وإنما كانت معاهد العلم والدرس متشعبة بين وطنية وأجنبية ، بين شرقية وغربية ، بين

جامدة ومتحررة ، تكاد في تشعبها تتناكر في الطابع والروح .

ولا يسعنا الآن إلا أن نحيط هذه المعركة التي دارت بين المحافظين والمجددين ، فلن تبطل أمة بأسوأ من الخول والسكون ، حيث لا تفكير في جديد ، ولا نزاع على رأى ، ولا دفاع عن مذهب ، ولا موازنة بين موروث ومستحدث من نتاج القرائح والعقول والأذواق .

وبما لا شك فيه أن هذا الاختلاف المذهبي والصراع النقدي كان خيراً وبركة على الأدب في توجيهه وجهة سديدة ، إذ أنه أفاد المحافظين والمجددين جميعاً ، في كبح ما بنفوسهم من جماح التطرف والاستئثار بالسلطان على العقول والأفكار ، وفي تجنيبهم مزالق التفريط والإفراط ، فقد كان لاصطراع المذاهب والأهداف ما يشبه التلاقح والتطعيم ، ولذلك انتهت هذه المذاهب والأهداف إلى شيء من الاعتدال والتصالح والتوفيق ، بفضل مآدار بين أشياءها وخصوصها من تجاذب ونزاع .

١٤

وفي العهد الذي كانت فيه تتجمع الأسباب التي هيأت الأذهان من بعد لخوض تلك المعركة الحسامية ، معركة القديم والجديد ، في ميدان الفكر والرأى والمعتقدات ، كان هنالك نزوع عند ناشئة

الأدباء إلى توجيه الأدب نحو الاستجابة للحياة الاجتماعية المتطورة، والتعبير عن الطابع الوطني للأمة في مختلف نوازعها، في أنماط جديدة تستوحى في صورها الأدب الأوروبي الحديث، وكانت « القصة » بمعناها الفني قبلة الأنظار لبلوغ ذلك الهدف .

وقد سجل التاريخ في العقد الأول من القرن العشرين للدكتور « محمد حسين هيكل » أنه وهو يومئذ شاب نازح إلى فرنسا ، يلقى فيها دراسة الحقوق ، أجرى قلبه بكتابة قصة « زينب » التي تعد باكورة القصص الفني في الأدب العربي ، وقد احتوت وصفاً للريف المصري يتراعى من خلال أحداث القصة وشخصياتها ومشاهداتها .

وكذلك يسجل التاريخ في تلك الفترة لشقيقي « محمد تيمور » أنه لما عاد من فرنسا ، التي ذهب إليها حيناً لدراسة الحقوق أيضاً - بدأ يعالج كتابة القصة القصيرة والمسرحية ، ويدعو إلى أدب مصري الملامح ، مستكمل للعناصر الفنية ، يعرض ألواحاً تصور بينتنا القومية ، بما يعتلج فيها من مشاعر وأشجان .

وعلى نهجه تتابعت أقلام الجيل الصاعد من الكتاب ، فتألفت مدرسة الأدب القصصى الجديد ، وكان من روادها « شحاته عبيد » و « عيسى عبيد » و « محمود طاهر لاشين » و « يحيى حتى »

و د إبراهيم المصري ، . وكاتب هذه السطور ، محمود تيمور ، .
ومن الظواهر التي لا بد من التنويه بها في هذا الإنتاج القصصى .
الفنى الوليد أنه قد تميز في لغته بشيء من الحرية والانطلاق ، فلم
يكن التعبير في القصص ملتزماً كل الالتزام أوضاع اللغة في تقاليدھا
المتوارثة ، وما تزين به من زخرف لفظى ومحسنات بلاغية ،
وإنما كان أدباء الطليعة القصصية حراساً على أن يستكملوا مقومات
الصيغة المحلية باستخدام اللغة الدارجة ، كثيراً فى الحوار ، وقليلًا فى
الوصف . وكان أولئك الرواد يحاولون أن يصطنعوا لأنفسهم
أسلوباً كتابياً تتوضح فيه شخصية الكاتب ، ولا يكون محاكاة
وتقليداً للأساليب الكتابية التى تلتزم تلك الأوضاع القديمة .

١٥

وبعد طبقة الرواد التى كانت تشق الطريق لوضع أساس القصة .
الفنية فى الأدب العربى الحديث ، تراحت عشرات الكتاب
تعالج التأليف القصصى ، وماهى إلا أن لمع فى الأفق القصصى كاتب
نابعة يجمع إلى الثقافة العربية الأصيلة ثقافة أوربية جامعية ، ذلك
هو الدكتور د طه حسين ، ، حين شرع يكتب سيرة شخصية
مكتملة العناصر الفنية للقصص الرفيع ، وهى سيرته هو منذ طفولته .
فكان لتلك السيرة التى حملت اسم د الأيام ، صدى بعيد فى الأدب
الجديد .

وفي هذه الحقبة رأينا كتابا أدبيا من أقطاب نهضة القلم هو الأستاذ « إبراهيم عبد القادر المازني » يرسم لنا صورا قصصية تمتاز بالحياة والطرافة ورشاقة العبارة وظرف الحديث . ومن هذه الصور ما يتخذ شكل أحداث ينتحلها الكاتب لنفسه أو يحملها على من يعايشه من الأهل والصحب ، فيكشف فيها زوايا فكرية من جوانب الحياة وشئون الناس ، وقد احتوى هذه الصور كتابه « خيوط العنكبوت » ، و « صندوق الدنيا » وغيرهما . ثم كتب القصة الطويلة في ذلك المنحى الأنيس الذي عرف به ، فقرأنا له « إبراهيم الكاتب » ، وغيرها ، ولا يغفل الناقد الأستاذ « المازني » أنه كان على فصاحة أسلوبه وإبداعه البياني يحاول المزج بين العامية والفصحى في حصافة ولباقة وحسن اختيار .

وبينا كان كتاب القصة يومئذ يزاوونها على تفاوت في درجة الإتقان ، وتباين في فهم المعايير الفنية للأداء القصصي - سطع في سماء الأدب العربي نجم قوى الأعلام ، ذلك هو الأستاذ « توفيق الحكيم » ، إذ راع عصره بأدب مسرحي وقصصي يدل على معرفة تامة بأصول فن القصة وأوضاعه السليمة ، إلى أصالة في الفكر ، وعمق في الثقافة ، ورهافة في الحاسة الفنية للتصوير ، وحنكة في المعالجة والتحليل ، وروعة في الخيال ، وبراعة في إدارة الحوار .

وإذا نحن نقرأ له دأهل الكهف، و«شهر زاد» و«عودة الروح»، وما إليها من تلك البدائع الفنية التي انطوت على قيم فكرية واجتماعية وأدبية ليست محدودة بحدود إقليمية ضيقة، ولكنها تستطيع أن تحتفظ بمستوى ملحوظ في سوق الأدب العالمى .

وبهذه الجهود القصصية التي توجتها روائع الأدباء الاعلام استقرت مكانة القصة العربية بين فنون الأدب العربى المتوارثة، من «مقامة» أو «مقالة» أو «رسالة» أو «قصيدة»، بل إن القصة ظلت تزاخم تلك الفنون حتى وصلت إلى الصدارة، فإذا القصة عنوان الأدب الآن .

١٦

حقاً لقد استهوت القصة صفوة الكتاب والمفكرين، وتعددت على أقلامهم مناحيها وأساليبها، فاكتمسب الأدب القصصى الحاضر تجارب وخبرات من مزايا الأدباء له، ومن ثمرات الرقى العقلى والثقافى والاجتماعى للأمة العربية التي تثب وثبات بعيدة فى سبيل استكمال النضج والوعى .

وبما يؤثر أثرأ قويا فى تقويم الفن القصصى فى الأدب العربى . مواصلة الترجمة على أوسع نطاق لأكبر الأعمال القصصية فى مختلف اللغات الأجنبية . فالقصص الإنجليزى والقصص الفرنسى والقصص

الروسي وغيره من قصص الآداب العالمية يتوافر في اللغة العربية ويتزايد يوماً بعد يوم .

كذلك مما كان له أبلغ الأثر في إنضاج فن القصة العربية انتشار الدراسات والمؤلفات التي تتناول علم النفس ، فقد كانت هذه الدراسات والمؤلفات سبيلاً إلى تنمية الوعي الكسائي ، والدقة في التحليل النفسي ، بالوقوف على نظريات الفلاسفة والمفكرين المحدثين فيما يتعلق بالعقل الباطن ، وتشابك الغرائز ، وصراع النزعات ، وسيلطان ذلك على البواعث الظاهرة من سلوك البشر .

ومن الفنون القصصية التي نشأت حديثاً في الأدب العربي: فن قصص الأطفال ، ولا تذكر نشأة هذا الفن إلا ذكر معها اسم « كامل كيلاني » الذي شرع منذ ثلاث قرن يقدم قصصاً مقتبسة أو مخرجة لإخراجاً عربياً جديداً من مصادر شتى ، بينها مصادر عربية . مثل « ألف ليلة » وقصص « جحا » . وإلى جانب ذلك قدم ترجمات مبسطة ملائمة لمدارك النشء من روائع « شكسبير » وغيره من أعلام الأدب الأوربي ، وقدم أيضاً نماذج كثيرة من الأساطير . وإذا كان الميدان اليوم حافلاً بأفانين من أدب الأطفال ، مؤلفة أو مترجمة أو مقتبسة ، لعدد كبير من رجال التربية والأدب والفكر ، فإن « كامل كيلاني » يعتبر الرائد لهم في أدبنا العربي الحديث .

ولقاء نظرة عامة على أدبنا العربى الحديث فيما سماه إليه من تجديد
ومن مساهمة للأفكار العصرية في فهم رسالة الأدب ومهمة الأديب ،
ترينا أن أدبنا هذا قد مر أول أمره بعهد حاول فيه تعصير اللغة ،
بالاقتصار على الالفاظ الحية المألوسة في الاستعمال ، وحاول فيه
تعصير الأسلوب بإخلائه من التراويق والمحسنات ، وحاول فيه
تعصير موضوعه بجعله أدبا محليا يستجيب للبيئة من حوله ، ويعبر
عنها . ولكنه في هذا العهد كله كان معنيا أيما عناية بالدوران حول
تصوير العادات والتقاليد التي هي وليدة التخلف والجهالة وطغيان
حكم الاستبداد ، ومن ثم تنازع الكتاب مشكلات محلية موقوتة ،
مثل مشكلة الأخذ بالنار ، ومشكلة تحكم الأهلين في زواج البنات ،
ومشكلات التزمت في الأحكام الأخلاقية ورفضها على المجتمع ،
والمشكلات العاطفية في مجتمع تسرى فيه روح الحجاب والحرمان .
الجنسى — فكان الأدب يصور ذلك كله ، متخذاً له في أغلب
الأحوال هدفاً أخلاقياً هو الانتصار للفضيلة وإعلاء كلمتها حين
تصير الأمور إلى الغايات ، وتنتهى المقدمات إلى النتائج . ولا شك
في أن النتاج الأدبي في ذلك العهد كان — طوعا لتلك الفروض
والقيود — بآدى الضعف من الوجهة الفنية البحتة ، إذ كان يفقد

حرية الاستلهام وحرية الأداء ، بيد أننا لا ننكر أن الأدب يومئذ قد أدى للأمة رسالة إصلاحية بعثت عليها الظروف والملابسات .

وقد شغل الأدب بهذه الاتجاهات المحلية الموقوتة ، والنقد الأخلاقي المحدود ، ومحاولة الإصلاح الاجتماعي في ذلك العهد ، عن لمس الأهداف الإنسانية العامة ، والمثل العليا في نطاقها الرحيب ، والمشكلات الدقيقة والمشاعر الأصلية الناجمة عن الغرائز البشرية الثابتة .

١٨

على أن هذا العهد لم يلبث أن تقلص ، لبدأ عهد جديد يرتقى فيه التعبير عن المشكلات الاجتماعية ، وعن البواعث الكمية للتقاليد والعادات ، وعن الأثر البعيد للبلابسات الاقتصادية والعمرانية في المجتمع العصري ، وهكذا انتقل الأدب من الصور الهزيلة في قصص « عبدالله النديم » ، مثلاً إلى الصور الفنية الرفيعة في قصة « المستضعفين في الأرض » ، للدكتور « طه حسين » ، ومن الصور البسيطة « لمحمد المويلحي » ، في « حديث عيسى بن هشام » ، إلى الألواح النابضة في « يوميات نائب في الأرياف » ، « لتوفيق الحكيم » ، ومن نقاد « حافظ إبراهيم » ، الوعظية في « ليالى سطحي » ،

إلى المنحى العصرى فى قصص « يحكى أن . . . » ، « لمحمد
طاهر لاشين » .

١٩

ويجمل بنا أن نشير إلى أن اللغة التى يكتب بها الأدب الحديث هى العربية الفصحى ، وقد أخفقت كل المحاولات التى أريد بها تسويد اللهجات العامية فى البلاد العربية ، وجعلها لغة كتابة كما هى لغة تخاطب وحديث . هذا مع أن اللهجات العامية أسهمت فى التعبير الأدبى فى الأغاني والأناشيد والأزجال والحوار القصصى والمسرحيات المحلية ، ونبع فى أدب اللغة العامية أدباء مثل الزجال « يرم التونسي » ، والشاعر « أحمد رامى » ، إذ قدموا إلتقاجا فيه حرارة وحيوية ، وفيه سمو فنى وفيه استلهم من البيئة الشعبية ، واستجابة لما فيها من مشاعر وأحاسيس . ولكن هذا الأدب العامى يقتصر الآن على المسرحيات المحلية ، والتمثيلات السينمائية والإذاعية وما إليها من أغنيات وأناشيد ، وكاد يمحى من حوار القصص المكتوب بالفصحى . ولعل انحصار الأدب العامى فى هذا النطاق مرده إلى أن هذا الأدب لم يستطع أن تظهر فيه عبقرية بيانية تفرض نفسها لتزاحم بيان الأدب الفصيح . وتكاد الدلائل كلها تجمع على أن المستقبل للفصحى ، وأن الفرص

التي أتيحت من قبل لإحياء اللهجات العامية في نطاق ينفسح أو يضيق ، تقل الآن وتزایل بسبب انتشار التعليم والصحافة والإذاعة ودعم وسائل الاتصال بين البلاد العربية ، وهيمنة الوعي العام لتوحيد اللغة والحد من اختلاف اللهجات في الوطن العربي الكبير .

٢٠

وأما أدبنا الحديث في حاضره الذي يتوئب إلى الأمام بخطا فساح ، فإنه زاخر بموجات فكرية تمدها ضروب من الثقافات المتنوعة ، وهي تستند إلى تأييد ورعاية من سلطان الدولة بما تنشئ من هيئات ومجامع ، وما تنظم من جوائز ، وما تمهد من وسائل التفرغ والتشجيع والتقدير .

وإن هذه الموجات الفكرية لتستهدى بنظرات نقدية منهجية حديثة ، وتكاد والبيئة الجامعية المتنورة في ذوقها الفني ومستواها الرفيع ، تستأثر بالانشاط في شتى فنون الأدب ، وتشيع فيها روح السمو والتجديد .

وفي وسعنا أن ننبين في هذا الأدب الحديث الذي نطالعه الآن صباح مساء اتجاهات واضحة ، وميولا قوية . منها محاولة تعميق النظرة إلى الحياة وإلى النظم الاجتماعية ، وتخليص هذه

النظرة من نطاق المحلية الواقعية المحدودة ، والنهوض بها إلى آفاق الروح الإنسانى الشامل ، على أساس من فهم الغرائز البشرية الثابتة ، والمشكلات الاجتماعية الأصيلة ، وأثر ذلك كله فى السلوك العام حين تتلاطم الغرائز ، وتتعاكس تيارات النفوس ، ويتجلى الكفاح من أجل الحياة فى صور متناقضة يلتبس فيها الخير بالشر .

ومن الانجازات والميول معالجة تصوير الآلام التى يعانىها المجتمع ، وتمثيل نضاله لتكميل نفسه .

ومنها المشاركة فى الدعوة إلى الأهداف العقلية والاجتماعية الرشيدة ، وهى التى تمثل وجدان الشعوب . وعلى رأسها دعوة الحرية ، والوحدة الإنسانية ، والسلام العالمى .

ومنها العمل على أن يكون الأدب وسيلة من وسائل التربية الاجتماعية للفرد والتوجيه العام للجماعة ، وذلك بتوسيع الخبرة بالحياة ، وإضافة تجربة إلى سلسلة التجارب ، والتبصير بحقيقة المشاعر والتصرفات من طريق التحليل النفسى العميق لمختلف ألوان السلوك .

وثمة منارتان يستضيء بهما الأدب العربى الحديث فى سيره إلى الأمام :

— ٤٩ —

المنارة الأولى : الحرص على الطابع الشرقى ، والاحتفاظ
بالروح العربى ، مهما يكن من استمداد الغذاء والنماء من شتى
المصادر الأدبية عند الأمم واللغات .

والمنارة الأخرى : العمل على أن يدخل الأدب العربى
ميدان العالمية ، ليكون له مكان مرموق فى قيادة الركب الإنسانى
تحت راية الفكر .

عائشة التيمورية

شاعرة الحب والألم ورائدة الأدب
النسوى في القرن التاسع عشر .
١٨٤٠ — ١٩٠٢ م

- مكانة الشاعرة عند معاصريها .
- إنتاجها الأدبي .
- كيف عرفتھا ؟ .
- حياتھا .
- شعرھا .
- رأى فى غزلھا .
- بين « عائشة التيمورية » و « رابعة العدوية » .

- ١ -

مكانة الشاعرة عند معاصريها

لم يظفر اسم نسوى من الجاه وشيوع الذكر فى عالم الأدب خلال القرن التاسع عشر وما استقبلنا من القرن العشرين ، بمثل ما ظفر به اسم السيدة « عائشة التيمورية » ، بل إن الأدب العربى على مدى عصوره لا يكاد يسجل للشواعر فيه من دواوين الشعر إلا ما كان من ديوان « الخنساء » الشاعرة المخضمة التى عاشت فى العصر الجاهلى وأدركت صدر الإسلام ، ومن ثم كان ظهور ديوان باسم « عائشة تيمور » حدثاً له دويه وله صداه فى الحياة الأدبية ، وفجر النهضة يومئذ ولید .

حقاً ، لم يفت ذلك معاصريها من أهل الأدب وحملة الأقلام ، فهذا الأستاذ الأديب « سليم بك رحى » ، يقول فى الحديث عن ديوان التيمورية إبان ظهوره فى أعقاب القرن التاسع عشر :

« إن من تقدم من النساء أقل فضلاً ممن يظهرن فى هذا

الزمان ، فإن وجودهن بين أحياء العرب ، أو قربهن من عصورهم ، ساعدهن على قوة الملمكة ، وانطلاق لسان البيان . فأما الآن وقد ضرب الجهل بجرانه ، وقوض من العلم أعالي بنيانه ، فمن تظهر بتجديد تلك المعاهد تستحق المقام الأول في الفخر ، وتغفر بحسنات وجودها سيئات العصر ، مثل صاحبة هذا الديوان
بل إن ذلك ما دعا السكاتبة النابغة د مى ، بعد تألق النهضة ، وقد انصرم ربع قرن على ظهور الديوان ، أن تكتب عنه وعن صاحبه ، فتقول :

« إن اسم التيمورية اسم شجى يحيا بزفراته الحارة المنغومة ، زفرات تنافلتها الأصدا ، يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطأ جميلاً حين كانت صورة المرأة سديماً محجوباً وراء جدران المنازل وتسكن الاستئثار ، .

« وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج هذا الباب وتمعن فى المسير كان مرجع الفضل إلى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادة غير المطروقة ، وبكرت فى إرسال الزفرة الأولى حيث كانت تسكن الزفرات . ويوم ينمو الأدب النسائى فى بلادنا ، فيجىء حافلاً بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد « عائشة » . تلك الأناشيد الساذجة لذيذة محبوبة . كترنيمة المهد القديمة التى هممت لنا بها أمهاتنا شجية مطلوبة كشدو القصب القائل :

« إن وراء المشاغل يظل القلب البشرى مثقلا بحنين وظما
لا يعرفان النفاذ... » .

٢

إنتاجها الأدبي

لقد أتيح للسيدة « عائشة تيمور » أن تدرس وتستكمل حفظها
من العلم والأدب ، دون أن تلتحق بمعهد خارج المنزل ، حتى أتقنت
اللغات الثلاث : العربية ، والفارسية ، والتركية . ونظمت في هذه
اللغات جميعا ما جادت به قريحتها من معانٍ وخطرات في شتى
الموضوعات . ولم تكن براعتها الفنية مقصورة على الشعر ، فقد
أسهمت في صناعة الترسل ، وكانت لها أعمال قصصية ومقالات
أدبية واجتماعية ذات بال .

إلا أن هذه السيدة التي استطاعت أن تشق أطباق الظلام ، في
عصر الجهالة والحجاب ، بما اقتبست من نور المعرفة ، لم تدعها
ملايسات الدهر تفرغ لإنتاجها لكي تقدمه إلى جمهور القراء ،
فخاصرتها أحداث صعب ، وتوالت عليها فجائع هدت منها السكبان ،
وأورثتها اليأس والقنوط . ولولا أن ولدها ألح عليها — وقد
جاوزت عصر الكهولة — أن تجمع له ما نظمت من شعر ،

وما كتبت من نثر ، لما أبقت لنا الأيام على شيء من آثار تلك الأدبية
الرائدة التي هي طليعة الأدب النسوى في العصر الحديث .

ولنستمع إلى ما قالته لولدها محمود توفيق ، أحد رجال القضاء
لذلك العهد :

« في استطاعتي أن أنظم الآن شيئاً من الشعر ، شكر الله عز
وجل على ما وهبني من النعم ، أما أشعاري الماضية فقد أحرقتها ،
ولا أظن أن في مكتبتى منها إلا الشيء القليل ، بالعربية والتركية .
فأما شعري بالفارسية فقد كان في محفظة فقيدي ، وقد أحرقت
محفظتها كما احترق قلبي عليها ، وإني أهدى إليك ما عندي من
السكتب والأوراق ، فاصنع بها ما شئت ، وإن رأيتهما جديرة
بالطبع فاطبعهما ... » .

وقد بر الولد بآثار والدته فأظهر منها في حياتها :

أولاً : ديوانها العربي المسمى « حلية الطراز » ، وقد طبع
غير مرة .

ثانياً : ديوانها الفارسي التركي ، المسمى « شكوفة » ، وقد طبع
بمصر والأستانة وإيران .

ثالثاً : كتابها القصص الحكيم المسمى : « نتائج الأحوال ، في
الأقوال والأفعال » ، وقد طبع بمصر وتونس .

رابعاً : كتبها النقدي الاجتماعي المسمى : « مرآة التأمل في الأمور » ، وقد طبع بمصر .

وتتحدث « التيمورية » عن سبب تأليفها لكتابها القصصى ، في المرحلة المتأخرة من حياتها ، فتقول :

« لما تلوت أحاديث من قضى من السلف ، ووردت منهل أخبارهم ورود من اغترف ثم اعترف ، وتأملت في سير الأمم ، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر منذ القدم ، وقد شاهدت والله بنفسى صدق هذا الخبر ، وكابدت لسوء حظى في كهف العزلة ما هو أدهى وأمر - دعتنى الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهى بما دهيت ، أن أبدع له أحدىثة تسليه عن أشجاناه عند تراحم الأفكار ، وتلهيه عن أحواله في غربة الديار » .

وهكذا صقلت المحن تلك الأدبية المبكرة ، وأوحت إليها في أعقاب الكمولة أن تزاول - إلى جانب الشعر - لونا من القصص الحكيم على تلك الأنماط التى كانت متعارفة فى تراث الأدب العربى ، أنماط الأسفار وأحاديث الأخباريين وما إليها من قصص شعبى .

على أن السيدة « عائشة تيمور » دبحت فوق ذلك مقالات وبحوثاً نشرت يومئذى بعض المجلات والصحف ، كمجلة « الأداب » ،

وصحيفة « المؤيد » ، وقد اشتهر من تلك المقالات مقال بعنوان :

« لا تصلح العائلات ، إلا بتربية البنات » .

وما كتبته « التيمورية » في النواحي الاجتماعية ، يكشف عن وعى سباق في الدعوة إلى تحرير المرأة ، وتمهيد الطريق لى تسهم في الحياة العامة . وقد كانت « التيمورية » نفسها مثلاً حياً بما كان ينشده المصلحون في ذلك العهد من أمل في النهضة النسوية .

٣

كيف عرفتھا ؟

أما معرفتى بالسيدة « عائشة تيمور » فقد كان ذلك في أعقاب القرن الماضى ، وأنا يومئذ صبى جاوزت الخامسة بقليل . كان أبى « أحمد تيمور » يصحبنى إليها ، إلى عمى ، التى يذكر هو لها فضل تشجيعه وتنمية نزوعه إلى القراءة والاطلاع . وما برحت أذكر وقفاتها عندى ، على سرير مرضى ، تعنى بأمرى وتواسينى فيما أجد من ضيق ، وما أقمى من أوجاع . وليس يبرح مخيلتى طيفها المأنوس ، صبح العيد ، جالسة فى حجرتها ، عليها مهابة ، وفى حركاتها نبل وترفع ، وفى حديثها حنو وتلطف ، تستقبلنا نحن ضيوفها الأحياء الصغار ، فتشغل أيدينا بما لذ من الحلوى ، وما راق .

من اللعب ، ثم تسمح على رؤوسنا في فرحة وتحنن ، داعية لنا بعافية .
موفورة وعمر طويل .

كان « التيمورية » الشاعرة قلب كبير ، ووجدان مرهف ،
يجب إليها الرفق بكل شيء ، حتى إلى ألفيتها تعني بسرب
من القطط استأثرت به ، وجعلت لكل قطة خشية خاصة بها ترقد
عليها ، وما أفتته منظرا أن كنت أرى « التيمورية » وقد أحاطت
بنفسها بهذه الصويجات التي تؤنسها بماء وهدير ، ومن
مداعبات ومعاينات .

وإني لأتمثل الآن وأنا في شيخوختي الواهنة ، تلك اللبسات
الواحدة من أنامل عمى الرقاق ، فأشعر من فوري بيهجة الطفولة
وصفاها يعارداني ، وكأنى بين يدي العمة أسمع وأرى .

لقد كانت قصائد « التيمورية » باكرة ما قرأت وما حفظت ،
فما أنسى يوم أقبل على أنى يدفع إلى ورقة خط فيها أبياتا مضطربا
بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال لي : « اقرأ » ، فأطعت ، متمهلا
في القراءة ، خشية العثار :

بيد العفاف أصون عن حجابي

وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقادة وقرينة

تقادة قد كملت آدابی

— ٥٨ —

ولقد نظمت الشعر شيممة معشر
قبلى ذوات الخدر والأحساب
ما قلت له إلا فكاهة ناطق
يهوى بلاغة منطق وكتاب
فجعلت مرآتى جبين دفاترى
وتخذت من نقش المداد خضابى
ما ضرنى أدبى وحسن تعلمى
إلا بكونى زهرة الالباب
ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى
وطراز ثوبى واعتزاز رجابى
ما عاقنى رجلى عن العليا ولا
سدد الخمار بلمعى ونقابى

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أبى يرنو إلى ، وهو يصوب
الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . وهكذا
تلقيت من ذلك الشعر أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة
من مكارم الأخلاق .

وأذكر أنا — نحن الأشقاء الثلاثة : د إسماعيل ، ود محمد ،

و « محمود ، — كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نتسلى بالترنم بها فى نشوة وإبتهاج .

على أنى لا أستطيع الادعاء بأنى فهمت فى صباى من تلك القصيدة التاريخية المشهورة ما تحمل من مغزى اجتماعى عميق له فى تاريخنا القريب صدى بعيد ، ذلك هو ثورة «التيمورية» فى قصيدتها تلك على الروح التقليدية التى كانت تحكم المجتمع المصرى فى هذه الحقبة ، فتجعل من المرأة رهينة بيت ، ودمية خدر ، لا مشاركة لها فى علم ولا أدب ولا ثقافة . لقد عبرت «التيمورية» فى نسج شعرى رقيق عن معارضة حارة لمن كانوا ينادون يومئذ بأن المرأة لم تخلق إلا للزينة، وللقيام بمهمة الأمومة وما إليها من شئون منزلية ، وأن المرأة لا تستطيع أن تجمع بين الصون والفضيلة وبين ابتغاء الوسيلة لاكتساب المعرفة ، فهتفت «التيمورية» فى قصيدتها بأن الفتاة المتعلمة المتأدبة تدعم بالعلم والأدب شخصيتها ، وتستكمل بهما فضيلتها ، وبأن الصون والعفاف لا يعوقان الفتاة عما تطمح إليه من ثقافة ومن إسهام فى موكب الحضارة ، ولا ضير عليها أن تتخذ من السكتاب مرآتها ، ومن المداد خضايها .

وقد حرص أبى على أن يزودنا فى الحين بعد الحين بمختارات

من شعر أخته « التيمورية » في أشبات من الأغراض ، وعلى الرغم
 مما كان لهذه المختارات من مكانة كريمة على ، وأثر بالغ في نفسى ،
 فإنها كلها قد تضاءلت وتخلفت يوم جاء أبى على « مرثية عمى »
 لا بدتها « توحيدة » التى ماتت في زهرة العمر ، تلك المرثية التى
 تقول فيها :

إن سال من غرب العيون بحور
 فالدهر باغ والزمان غمدور
 جاء الطيب ضحى وبشر بالشفاء
 لأن الطيب بطبه مغرور
 فتنفست للحزن قائلة له :
 عجل بى رثى ، حيث أنت خير
 وارحم شبابى إن والدتى غدت
 تسكى يشير لها الجوى وتشير
 لمسارات يأس الطيب وعجزه
 قالت ، ودمع المقلتين غزير :
 أماء قد كل الطيب وفاتنى
 مما أومل فى الحياة نصير

لو جاء عراف اليمامة يبتغى
 برئى لرد الطرف وهو حسير
 أماء قد عر اللقاء ، وفي غد
 سترين نعشى كالعروس يسير
 صوفى جهاز العرس تذكارا فلى
 قد كان منه إلى الزفاف سرور
 بنتاه يا كيدى ولوعة مهجى
 قد زال صفو شأنه التاكدير
 قد كشت لا أرضى التباعد برهة
 كيف التصبر والبعاد دهور
 قلبى ، وجفنى ، واللسان ، وخالقى :
 راض ، وباك ، شاكر ، وغفور

أطال أبى جلوسه إلى ، وهو يملى على قصيدة الرثاء كاملة ،
 حتى ملأت صفحتين اثنتين ، دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون
 أن أجد فى نفسى لذلك ملالة وفى هذه المرة لم يلق أبى صعوبة فى
 الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات القصيدة تناسب فى وجدانى
 أنسياً ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفى .

أكنت أفقه معانى هذه القصيدة حقاً ؟ لم أكن يومئذ لذلك
 أهلاً ، ولكننى أحببت القصيدة ما وسعنى أن أحب ، وزاد بها

ولوعى يوماً بعد يوم ، إذ أنارت بين جوانحي ، جوانح الصبي
الغريز ، مشاعر دفينه ، فاتخذت منها لحناً شجياً ، تطيب به نفسى .
كلما أسمعته نفسى .

بهذا تعلت من شعر « التيمورية » فى مطلع أيامى أن الأثر
الفنى الحق يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ،
قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول والأذهان . فالفن
الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت
مداركهم صدق فى الأفتدة وتجاوباً فى المشاعر .

لقد كتبت « التيمورية » قصيدتها هذه بذوب مهجتها التى أدمها
الجرح ، فكانت صورة الشعور الحزين ، ولحن الألم العميق ،
تودده الإنسانية المعذبة حين تمتحنها الأقدار بالخطوب الجسام .

٤

حياتها

ولدت السيدة « عائشة » فى سنة ١٨٤٠ ، وتوفيت سنة ١٩٠٢ ،
وقد جاوزت الستين بقليل .

أما أبوها فهو « إسماعيل تيمور باشا » ، وقد كان من رجال
المناصب العليا فى مصر بين حكم « محمد على » وحكم « الخديو

إسماعيل ، . ولم يكن مجرد رجل إدارة وسياسة ، وإنما كان رجل علم وثقافة ، يجيد ست لغات : هي التركية والعربية والفارسية ، والفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وفيما تولاه من المناصب رئاسة القلم الأفرنجي في الديوان ، وآخر ما وليه منصب الرئيس العام للديوان الخديوي ، وقد شاع عنه ولعه بالمطالعة ، وشغفه بمجالسة العلماء ، وحرصه على اقتناء الكتب النفيسة شراءاً وامتناساخاً ، ويروى عنه أنه قال : « إني لأستحي أن يقع في يدي كتاب ولا أطلعه » . وقد أنشأ في حياته مكتبة خاصة له تفرقت بعد موته . فلم يبق منها إلا فهرس الأسماء . وبما ذهبت به الريح مع أوراقه كتاب عني بتأليفه ، وأودعه خلاصة مطالعاته .

وأما والددة السيدة « عائشة » ، فحريكية الأصل . أرادت لابنتها نشأة كنشأة أترابها من فتيات القصور . تحسن فن التطريز ، إلى غيره مما يتصل بشئون البيوت الكريمة المطبوعة في هذا العهد بطابع المحافظة ، المضروب عليها حجاب .

وآمنت الصبية وعائشة ، في فطرتها نزوعاً إلى التعلم ، وعزواً عن ممارسة الفنون النسوية المنزلية . ومن ثم قام بينها وبين والدتها صراع . فالصبية تريد الاستجابة لتلك الفطرة ، والوالدة تأبى على ابنتها أن تخرج على تقاليد الأسرة . وقد صورت لنا السيدة

«عائشة» فيما بعد ذلك الصراع تصويراً دقيقاً في قولها :

«فلما تهيأ العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلى ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والإتحاف ، والدقى ، تغمدتها الله بالرحمة الغفران ، بأدوات النسيج والتطريز ، وصارت تجسد في تعليمي ، وتجتهد في تفهيمي ، وأنا لا أستطيع التلقى ، ولا أقبل في حرف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتأففت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصير القلم في القرطاس أشهى نعمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ، وكنت ألتبس من شوقي قطع القرطاس وصغار الأفلام ، وأعتكف منفردة عن الأنام ، وأقلد الكتاب في التحرير ، لأتهج بسماع هذا الصرير ، فتأق والدقى وتعنفني بالتسكير ، فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز إلا قصوراً ، فبادر والدي تغمد الله بالغفران ثراه ، وقال لها : دعي هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، واحذري أن تسكثري من الكسر في قلب هذه الصغيرة ، وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقني في سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى نتقاسم بنتينا ، نخذى «عفت» وأعطيني «عائشة» . وإذا كان لي من «عائشة» كاتبة وشاعرة ، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد عاتق .

لثت الصبية «عائشة» فيما بين السابعة من عمرها والثالثة عشرة
منسكبة على الدرس ، يجلب لها والدها من الأساتذة المعاصرين من
يلقنونها العلوم واللغات .

على أن هذا الوالد العطوف ، على الرغم من سعة أفقه ، وفسحه
بجال التطور لابنته ، لم يكن يستطيع التخلص من طابع المحافظة جملة .
ولم يكن يملك الثورة على التقاليد دفعة ، فإن السيدة «عائشة»
تقول :

« لم يكن أبي يأذن لي بالخروج إلى مجالس الرجال ، وتولى
بنفسه تعليمي ، واختصني بساعتين من وقته ، في كل ليلة ، أقرأ
فيهما عليه » .

وكان الأب أيضاً يشفق على ابنته من شعر الغزل فيما تقرأ من
كتب الأدب ، وتروى عنه ابنته قصة هذا الإشفاق ، فتقول :

« كان أبي كلما رأى في يدي ديوان شعر ، قال لي : إنك إذا
أكثر من مطالعة الشعر الغزلي ؛ فسيكون سبب زوال كل
دروسك من ذاكرتك ! » .

وبدت مخايل الشاعرية عند « التيمورية » ، وهي في طراوة
الصبا ، وحنانة العمر ، وقد روت عن نفسها ما يصور تلك
اليقظة العاطفية في قلب فتاة لم تتجاوز الثالثة عشرة .

قالت «عائشة» :

« في إحدى الليالى جاءتنى مريقتى بطاقة ورد ، وضعتها في مشرّ بيتّي ، وكانت الليلة ليلة البدر ، وفيما أنا أمتع ناظري بذلك المنظر ، دعتنى أمى إليها ، فتركت طاقة الورد في أمانة البدر ، ثم عدت من عند أمى ، فوجدت الورد مبدداً ، فأحزنتنى ذلك كثيراً ، ووضعت ناصيتى في كفى ، وأخذت أفكر ، فجاءت قريحتى بيتهين من الشعر الفارسى . . . »

وهكذا كان الوحي الشعري الأول عند الصبية «عائشة» ، لونا من التأثر بمحاسن الطبيعة ، وانعطافاً رقيقاً لفتنة الأزهار والرياحين .

وما كان لفتاة لها من السناء والسناء ما «لعائشة» أن يطول مكثها في بيت أهلها لاتخطب ، وبخاصة في ذلك العصر الذى كان فيه التكبير بالزواج سنة المجتمع . وقد تم زواج «عائشة» لقريب لها ، فصرفتها شواغل البيت الجديد عما هفت نفسها إليه من التفرغ للأدب ، ورزقت من الذرية ما زادها شغلاً ، ولكن النزوع الأدبي ظل كامناً بين جوانبها يبدو في بعض المناسبات والأحداث ، متمثلاً في مقطعات من الشعر تترنم بها في هناء أو عزاء .

وتوالت عليها من بعد فجائع لم تكن لها في حسابان ، إذ قضى

أبوها ، وقضى على أثره زوجها ، وكذلك ماتت والدتها ، فثبتت
 « التيمورية » لهذه الفجائع تستلهم منها الحيوية والعزم ، وتستمد
 القوة على كفاح الزمن . ولعل هذه المحن هي التي ألهمت قلبها حينئذ
 إلى استئناف صلتها بالأدب ، واستكمال أدواتها فيه ، وافتتن بذلك
 أن شبت ابنتها « توحيدة » تنهض عنها بتدبير البيت وشواغله ،
 فأقبلت « التيمورية » — وهي يومئذ على مقربة من تمام الأربعين —
 تنهل من كتب الأدب ما تنهل ، وجلسات إلى سيدتين تعلمانها من
 دقائق العلوم العربية ، وبخاصة ميزان الشعر ، ما لم تكن قد استوفت
 دراسته . وإنه لأمر عجب ألا يسجل التاريخ الأدبي اسم السيدة
 « فاطمة الأزهرية » والسيدة « ستيمة الطبلاوية » ، إلا بأنهما كانتا
 أستاذتين لطليعة الأدب النسوى في العصر الحديث . ولم يتجل
 أثر هاتين السيدتين المثققتين في عهد الجمالة والحجاب إلا بفضل
 نبوغ تلميذتهما الشاعرة . وسيظل اسمهما حول اسم السيدة « عائشة
 التيمورية » كالهالة حول السكوكب الألاق ، وفاء لما أسبغته
 عليها من علم وعرفان .

استطاعت « التيمورية » أن تجعل من تصارييف القدر حيالها ،
 على قسوتها ، مجالا خصبا للتعليم والإنتاج الأدبي ، فأفرغت همها في
 إقبال على القراءة والاطلاع ، وفي مزاولة لتنظيم القصائد في مختلف

الموضوعات . ويمكن أن يقال إن تلك الفجائع التي حاقت بها كانت نقطة تحول في حياتها العامة . إذ بدأت بعدها مرحلة جديدة تكونت فيها شخصيتها الأدبية واضحة المعالم والسمات .

ولم تكد تمضى في عهدها الجديد . حتى كانت رزيتها الكبرى ب وفاة ابنتها العروس «توحيدة» ، وسنها نحو الثامنة عشرة . فجئن جنون الشاعرة لحائمة الفواجع التي بيئتها لها القدر فاجعة بعد فاجعة واستسلمت لأشجانها تكتوى بها ، ولبثت كذلك أعواما أطلقت عليها «أعوام المناحة» ، كما أطلقت على البيت الذي أقامت فيه يومئذ «بيت الحزن» وقد أصيبت الشاعرة في وقدة هذه الأحزان يرمد كعاد يفقدها البصر .

وفي خلال تلك الفترة العصيبة ، كانت «التيمورية» قدناوشها السخط على كل شيء ، فأهملت ما سلف من شعرها في اللغات العربية والفارسية والتركية ، وكادت تتردى في مهوى اليأس ، فلا تقوم لها قائمة من بعد .

ولكن الحياة أقوى من الأحداث ، وللزمن سحر في تطور الأحوال، فإن «التيمورية» ضمدت جراحها ، ما وسعها أن تضمدها ، واستأنفت نشاطها الأدبي نظما وتاليفا .

٥

شعرها

والشعر الذى خلقته «التيمورية» أجوده ما تمخض عن تلك
المحن والفواجع . وحسبك منه المراثية التى تصف بها «التيمورية»
مصرع ابنتها العروس ، فقد كانت لحناً رائعاً تشمل فيه الحفقات
الراجفة من قلوب الثاكين .

ومن أجود أشعارها تلك القصائد التى تشكو فيها الشاعرة
ما عانت من عينها الرمءاء ، إذ قرحت دموع الأسى على من فقدت
من الأجزاء . وقد صورت «التيمورية» فى تلك الرمديات مشاعرها
إزاء محنتها الأليمة بما غشى عينها من ماء ، جهد فى علاجه نطس
ال أطباء وقتنا ليس بالقصير .

لنستمع إليها تقول من إحدى هذه الرمديات :

لقد أصبحت فى حزن وأن

وقلبي بين أتعاب وأين

وما أهدت صبا الأسفار يوماً

إلى عين غدت فى أسر عين

— ٧٠ —

تخالفت الأساءة : بطول وعد
 يعلنني ، ويأس فيه حيني
 ومن فظ يهددني جهارا
 بمبضعه المصوب في اليدين
 وعمدي بالمياه حياة نفسي
 فإلى قد ظمئت بماء عيني
 وأبسط للظلام أكف بشي
 وأشقى لوعة بالظلمتين
 يتأفرن السنا فأفر منه
 كأن الضوء يطلبني بدين
 نعانى أبيض القرطاس لما
 جفاني اليوم نور الأسودين
 وقد جفت دوائى وهى تبكى
 لما قد راعها من طول بيني
 وأقلامي قد انشقت لأني
 حرمت مساسها بالإصبعين

وإننا إذ نقرأ شعر « التيمورية » في الشكوى والآنين ، لنحس
 قلبها يتفجع ويتوجع ، ونجد تعبيرها حارا عن مشاعر إنسانية
 عامة ، فليس هو مجرد بكاء أبكم ، ونحيب أجوف . ولما سكته ذوب

نفس شعرت فتألمت فعبرت تعبيراً عليه طلاوة وفيه رقة ، لا يكاد
يلبغ الأسماع حتى ينفذ إلى أعماق القلوب .

والمرتبة الثانية من الجودة في ديوان « التيمورية » هي لتلك
القصائد الغزلية ، وهي أوفر أبواب شعرها كمّاً ، فإن قصائد الغزل
تكاد تبلغ نصف ما نظمت « التيمورية » من شعر .

وإن غزل « التيمورية » ووصفها للصباة والوجد ، يقطر
سلاسة وعذوبة ، فيمس القلوب مساً رقيقاً ، كأنه لمسات نسيم رخي .
تداعب الجدول الرقراق .

تقول في إحدى مقطعاتها :

حي الرفاق وصف للحي أشواق

وحدث الركب عن تسكاب آماق

وبلغى يا صبا إن جزت نحوم

أنى مقيم على عهد الهوى باق

كيف اصطبارى وأحشائى بها حرق

من جذوة مالها من حرها واق

قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما

لواعجا كحيم أو كفساق

أسال حر الهوى قلبى وأبرزه

جفتى على يد آماق وأحداق

هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهبا

وفى التنفس من آثار إحراقى

قدمت لنا «التيمورية» هذه الرقائق الغزلية متاعا أدبيا للقلوب والأذواق ، ولكن جرأة شاعرة شرقية فى القرن التاسع عشر ، بين ظلمات عصر الحجاب ، على أن تمارس القول فى الغزل ، كان جديراً أن يثير التساؤل بين النقاد والباحثين ، فهم لم يكتفوا بما أتيح لهم من ذلك المتاع الأدبى الذى جادت به قريحة الشاعرة ، وإنما طاب لهم أن يستبطنوا ما عسى أن يكون وراء ذلك الشعر من أسرار ، فجعلوا يتساءلون : ما للسيدة «عائشة» والغزل ؟ وهى سلبية بيثة محافظة فى عصر محافظ تتكاتف فيه أئقال الأعراف والتقاليد ؟ كيف تعبر عن مشاعر نفس داخلها العشق ؟ كيف مضت تصور أشجان القلب ؟ كيف استباححت لنفسها أن تنال من حب ؟ .

كان من تناول هذه الناحية كاتبة وكاتب ، كلاهما من الخبراء . بأهواء النفوس ومنازع القلوب ، وكلاهما من مارسوا التعبير عما يعتلج بين الجوانح من الخواالج والخطرات .

أما الكاتبة فهى النابغة دى ، وقد مالت إلى التشكيك فى أن تكون «التيمورية» ، قد قالت شعرها الغزلى كله للمحاكاة والتقليد .

وفقا لما صرحت به الشاعرة ، إذ قالت : إنها « تغزلت في غير إنسان » .
والقصد تمرين اللسان . وعند « مى » أن شاعرتنا « في طليعة نساء
العهد الجدد المتعرفات حقهن ، في حرية العاطفة ومشروعاتها ضمن
حدودها الطبيعية ، ليس في الشرق فقط ، بل في العالم المتمدين أجمع » .
ومضت « مى » تدلل بالتمثيل من قصائد الشاعرة على أنها « صادقة
للهمجة في ذكر السعير الذى يضره الشوق » .

وأما السكاتب فهو الأديب الفيلسوف الدكتور « منصور فهمى »
إذ قال :

« أياكون غزلها ضربا من ضروب الصلة ، بمن هو أهل لذلك
الغزل ، أو بمن هو حرى بهذا الحب من الرجال ؟ أياكون هو الحرمان
من حرية الاختلاط بمن ترغب النفس في الاختلاط بهم من
الناس ، قد أدى إلى كبت العواطف ، وأدى الكبت إلى التنفيس
عنها وتصعيدها في التخيل والشعر والقول المنخوم ؟ أياكون هو
التسامى بالغرائز الدافعة الحبيسة ، فيعمل الاستعداد الفنى والأدبى
لتحويلها وتبخيرها إلى أدب وشعر ؟ » .

رأى فى غزلها

ولمى أحب أن أقف عند هذه المسألة — أعنى شعر «التيمورية»
الغزلى — وقفة مستأنية لا تخلو من روية ، اعلى مستطيع أن أبدى
الرأى فيها بقول له من الصواب نصيب .

أما أن «التيمورية» من ذوى العواطف المرفهة ، والمشاعر
الحساسة ، فهذا لاخلاف عليه ، وفى شعرها على ذلك برهان
فيه مقنع .

وأما أن قلبها قد هفا إلى حب ، وأن هذا الحب قد وجد الشخص
الذى يشمل فيه ، أو بمعنى أوضح : أن «التيمورية» قد عشقت ،
وأنها فى هذا العشق لم توفق أو وفقت ، فاليقين فى هذا عند علام
الغيوب ، عند رب القلوب . وليس فى تاريخ «التيمورية» ولا فى
تنوّل عنها من حديث قريب أو بعيد ، ما يلقى بصيصاً من ضوء ،
أو طرفاً من نبأ .

بقى تقلب النظر فى شعرها الغزلى ، واستنجد به عن جلية
الأم ، فهل عبرت «التيمورية» فى ذلك الشعر عن عاطفة دفاقة
ووجدان مشبوب ؟ أفى شعرها من شكوى الهوى ، ومن الوجد

والحنين ، ومن وصف ما يعتمل في الصدور المحترقة بحر الحب ،
ما يكشف عن خبيثة عاشق ، ويفصح عن روح هيمان ؟

لقد قرأت ما نظمت « التيمورية » في الغزل ، وفي أذن مسامع
دقيق ، أعالج أن أستبين به خفقات قلب عاشق ، وعلى عيني منظور
مكبر ، أحاول أن أستجلي به ملامح وجه معشوق ، حتى كلت عيني
من طول النظر ، وعيت أذني من فرط السمع ، وحتى ضاق
بي المسامع الدقيق والمنظار المكبر ، فلم يخلص لي شيء يطمئن إليه
ضمير الباحث المتقرب ، ويرضى به ذوق الناقد الأديب .

الحق أن من أراد أن يلتبس عند « التيمورية » تجارب عاشق
لوعته الصباية ، ونالت منه تباريح الجوى ، وأوعى شعره ما حاك في
صدره الحران ، في تعبير صادق ، وأداء حى ، فإنه لن يجد مبتغاه
على نحو ما يطمح إليه . وأما إن أراد أن يتوسم صورة مجددة لتلك
المعاني المطروقة والأوصاف المعهودة التي أفاض فيها شعراء العربية
على اختلاف مقاماتهم وأقدارهم منذ العصور الغابرة إلى وقتنا
الحاضر ، متغزلين في المرأة ، مشبهين بها ، متحدئين عما يلقون من
صدما ودلاها ، وما يعانون في هجرها ومطالها ، فإنه واجد من تلك
المعاني والأوصاف ملامح وحنينة تسير بها « التيمورية » أولئك
الشعراء السخريين في القديم والحديث .

تغزلت « التيمورية » لأنها شاعرة ، والشعر العربي أوله الغزل ،
ويكاد الشاعر يرادف المتغزل ، ونحن نعرف كيف كان الاستهلال
الغزلي يتصدر شتى القصائد في شتى الأغراض ، كأنه الفواتح
الموسيقية التي تتصدر فصول الملحنيات « الأوبرات » ، وبرامج الحفلات
والإذاعات . والغزل أكبر أبواب الشعر العربي جميعاً ، وهيئات
لشاعر ألا يتغزل ، وإن المعاني الغزلية بما تحمل من طابع الرقة
والحنين ، وبما تستوعب من نجوى القلوب ورفيف الأرواح ،
أليق المعاني بالنسيج الشعري ، وأقربها منا لا مثله . فالتغزل إذن كان
سلم الشاعر ، وإنه لسلك ذلك إلى يومنا الحاضر . وما الشعر في الحق
إلا غزل بأوسع ما في الكلمة من مدلول : غزل للبرأة ، غزل
للطبيعة ، غزل للمعاني ، غزل للأطياف والأشباح والظلال في مظاهر
الحياة وسرائر الوجود .

عرفت « التيمورية » ذلك كله بما قرأت من الشعر العربي ،
وبما سمعت من توجيه أساتذتها الذين أشرفوا على إعدادها الأدبي .
وصادفت آفاق المعاني الغزلية استجابة من نفسها الشاعرة ، فضمت
على طريق الشعراء : بسننهم تقهتدي ، وبسنانهم تهتدي ...

ماذا كان يمنع « التيمورية » أن تتغزل ، منافسة الشعراء فيما
فظموا ؟ ومن الذي قال لها إن الشاعر لكي يتغزل ، لا بد أن يحب ؟
ألم تقرأ « لجريز » ، ولغير « جريز » ، من شعراء الغزل الرقيق ما يصبى

المرأة . وما كان « جرير » ، وكثير غيره من شعراء الغزل في العشاق ؟
 ألم تقرأ المطالع الغزلية من شعر « مهيار » ، وكلما ترعك وصفها
 وتشوقك حينئذ . وما كان « مهيار » إلا صدى في وصفه وحنينه
 لشعر أستاذ « الرضى » . لم يصدر في شعره عن عين أرقها هوامها ،
 أو وجدان شب فيه التبايع ؟

ومالنا تتمثل بهذا أو ذاك من الشعراء ، وأنت تسكاد تحصى
 الشعراء الغزلين الذين اكتبوا بنار الحب ، وعبروا عن عاطفة
 صداقة وعشق أصيل . ولكن الشعراء الذين قالوا في الغزل صناعة
 وتقليداً لا يكاد يحصيهم أحد !

الشعراء - إلا الأفالين الأندرين - كانوا يتغزلون في المرأة
 ويشيرون بها ، ولعل أجودهم غزلاً وأقدرهم على التأثير بشعرهم
 الغزلي ، هم الذين كانوا يصنعون الغزل صنعا ، ويقولونه محاكاة
 وتقليداً ، وعلى هذا النهج سارت « التيمورية » ، فنظمت ذلك الشعر
 الغزلي الذي استغرق من ديوانها النصف إلا أقله .

ربما كان من العوامل التي ضللت النقاد في حديثهم عن الشعر
 الغزلي عند « التيمورية » ، جعلت الحقيقة تلبس عليهم في فهم
 كنهه ، أن « التيمورية » استعملت صيغة التذكير في وصف
 المحبوب وفي خطابه ، فلم يروا حرجاً أن يقولوا : إنها تتغزل في
 رجل !

ولكن الحق أن استعمال صيغة التذكير في الوصف والخطاب كان سنة الشعراء حين يتغزلون في النساء ، وما لإخالي بحاجة إلى سوق الأدلة على صحة تلك الدعوى ، فذلك هو الشعر العربي منذ تنوعت الألفانين الشعرية ، في عصر « بنى العباس » ، إلى اليوم ، يتحدث فيه الشعراء عن حبايبهم من الغيد الحسان بصيغة التذكير في الوصف والخطاب .

كلنا نتغنى بقول الشعاع في القديم :

أفديه إن حفظ الهوى أوضيحه ملك الفؤاد فما عسى أن أهنعه .

وكذلك نتغنى بقول « شوقي » في الحديث :

مضناك جفاه مرقده ورثاه ورحم عوده

وكلاهما حبيب يخاطب حبيبته ، وإن كان الخطاب لمذكر . بل إن الأغاني العاطفية في اللهجة العامية تجري هذا المجرى في الأغلب ، تخاطب فيها المحبوبة بصيغة التذكير ، ومن شاء المثل على ذلك فإنه واجده فيما يحفظ من هذه الأغاني ، قرب بها العهد أو بعد .

« فالتيمورية » حين استعملت صيغة التذكير في غزلها ، لم تكن تعنى أن تخاطب رجلاً ، ولسنا نعول في تأييد هذه الدعوى على مجرد الإشارة إلى سنة الشعراء وأصحاب الأغاني في ذلك قديماً

وحديثا . وإنما نجد الدليل الحاسم فيما احتوى شعر « التيمورية » .
الغزلى من مضمون وصفى .

هذا قولها :

عذب الرضاب مبهف يسى المقيم بالخور
من منجدى ، وجفونه منها المحب على خطر
قابله متنبها ناهيك من غصن خطر
ورأيت متبها كالبدر لما أن سفر
اصدع بحسنك واقتخر تها بجيدك والطرر .
فالشمس تحجل عندما تبدو ويستحي القمر .
وذلك أيضا قولها :

سلوا جفنى الهامى أسقم أصابه

أم الوجد من « ليلي » أباح انصابه .
وميلوا على قلبى بلوم فإنه دعاه إلى نادى الهوى فأجابه .
فلى بين مكسورين : قلبى وجفنه
حياة عزيز أغلق الذل بابه
ولا تعذلوا آماق صب بفرحة
فعند امتلاء الكأس يبدى حبابه

هكذا وصفت « التيمورية » حبيبها : فى ريقه العذب ، وعينه

الخجوراء ، وعوده اللدن ، وجيده الجبل ، وطرره الفائنة ، وجفنه المكسور . وما هذه الأوصاف إلا محاسن النساء التي هام بوصفها الشعراء ، وما « التيمورية » فيها إلا شاعرة تقمصت شخصية رجل يتغزل في المرأة ويناجيها ، ولكن بصيغة التذكير ، جرياً على العرف الشعري المألوف .

ومقطع الرأى في شعر « التيمورية » الغزلى أنك لو عنوانته جميعاً بأنه ترانيم رجل عاشق يصف بها عشيقته ويناجيها ، لما شذ بيت واحد من الشعر كله عن أن ينساق لذلك العنوان !

٧

بين عائشة التيمورية ورابعة العدوية

وثمة جانب آخر من « ديوان التيمورية » يروعك بما فيه من شعر صادق الوحي ، نابض الإلهام ، ذلك الجانب هو القصائد التي تتصل بحكمة الحياة وفلسفة الكون ، وتنزع منزعاً دينياً في الاستغاثة بالله والابتهال إليه ، وتحمية رسوله صلوات الله عليه .

قالت « التيمورية » :

كم ذا نهىء بالآمال أنفسنا حتى كأن الفتى طول المدى باق
فألهر تبسم عن حقد بشائره فينا ويطوى نكالا ضمن إشفاق

فما نظرتى الناس سكرى غفلة عظمت

أدارها الدهر واستغنى عن الساقى
ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته وما السعادة إلا حسن أخلاق
هذه الورقاء اهتوف ، التى تجلت رهافة أحاسيسها الشاعرية
منذ صباها ، صهرتها بحنة تلو بحنة ، فترفعت عن شوائب الحياة
وظواهرها العابرة ، وشف روحها عن إيمان مكين ، وهفت نفسها
إلى أفق علوى مصفى ، فخلقت بأخيلتها تتطلع إلى السماء وتشغف
بمناجاة الله ، فسما من العشق الآلهى قيس ، وانفتح لها إلى التصوف
طريق ، حتى لكان شأنها فى عصرنا الحديث شأن رابعة العدوية ،
فى عصرها القديم ، بينهما تجانس وثيق ، وبينهما مشابه ملحوظة .
حقاً ، لم تكن حياة عائشة التيمورية ، على نحو حياة رابعة
العدوية ، ولم يكن لهذه من الملاحظات ما كان لتلك ، بيد أنهما
التقتا فى أنوثة رقت مشاعرها حتى اتصلت بحب الله ، وكلتاها ناجت
الملا الأعلى مناجاة صوفية خالصة ، وكلتاها عبرت عن أشواقها
الروحانية فى نسج شعري هفيف .

دونك لوامع من أبياتها إلى الله :

أتبت لبابك العالى بنلى فإن لم تعف عن زلى فمن لى ؟
عمقرا بالجنائية وامتالى لأسر النفس فى عقدى وحلى
ومعترفاً بأوزار ثقال أفاد لجلها طوعا لجهلى

أقر بزلتي من قبل كيلا تقر جوارحي بالذنب قبل
أتيت ولي ذنوب ليس تحصى أقول لراحمي : بالعفو كن لي
ومن قصائد « التيمورية » في هيامها الديني مطولتها التي سبقت
بها في عصرها الحديث « شوقي » صاحب « نهج البردة » في معارضة
القصيدة المعروفة « بالبردة » لصاحبها « البوصيري » في
مدح الرسول .

وليك بعض أبيات تلك القصيدة التيمورية في التوسل بالمقام
النبي الكريم :

إني رددت عنائي عن غوايته وقلت يانفس خلى باعث الندم
ولدت بالمصطفى رب الشفاعة إذ
يدعو المتنادي فتحيها الناس من رجم
روحى الفداء ومن لي أن أكون له

هذا الفداء وموجودى كمنعدم
والعمر أفنت ثقال الوزر لحيته وبددته صروف الدهر بالتهنم
من لي بترب رحاب لو أفوز بها

كحلت عيننا أفاضت دمعها بدم
طابت ذكرى « التيمورية » من شاعرة ، مرت في هذه الدنيا ،
لتهدى إليها نفحات وجدان حي ، وقلب عطوف .

وسلام عليها ، في دار السلام !

شوقي والمسرح العربي

الشعر المسرحي في أدبنا العربي ، لا ينسى لأمر الشعراء « شوقي » أنه هو الذي رصعه بفرائد تألفت ومازالت تتألق ، ولا أحسب أنها ستفقد ألقها على الزمان . وشخصية « شوقي » في الحياة لا تقل طرافة عن شخصيته في الأدب ، بل لعل معالم تلك الشخصية البشرية هي التي غدت مواهبه الفنية بغذاء قوى ، وهي التي كان لها الأثر البعيد فيما قدم من روائع القصيد .

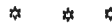
كان « شوقي » في قصر الإمارة مطوى الجوانح على خصائص ديمقراطية شعبية ، وكانت نظراته الأخلاقية وأفكاره الاجتماعية ونزعاته الوطنية تمثل أركى ما يختلج به ضمير الرأى العربى العام من مشاعر ومثل ، وأبعد ما يتطلع إليه الوعى القومى من أهداف وأمان . وفى الحق أن « شوقي » كان حاضرا بجسده على كرسيه فى تلك المناصب السامية ، يتخذ لها رسومها وأوضاعها ، فأما أشواقه الروحية وحياته المعنوية فكانت خارج تلك الحدود والقيود ، تتنفس أنفاسها فيما يتغنى به من شعر ، وفيما يمرح فيه

من انطلاقات في قلب البيئات الشعبية العامة ، فمن شاء أن يشهده
في جوهره الأصيل ، عاريا من زخرف المراسم ، وجده في ندوات
ومشارب يختلف إليها جمهرة الناس هنالك يجلس محوطا بأخلاق
من خلق الله ، فيهم ناشئة الأدب ، وفيهم من تتفاوت ثقافتهم بين
الحضينض والأوج ، وفيهم من لا يحسن إلا أن يتظرف ويردد
ما يشيع من نكات وأضاحيك ، وكان « شوقي » يحرص في مجالسه
تلك على الاستماع ، وقلما يشترك في الحديث ، فما هو من المتحدثين
الذين أوتوا ذلاقة اللسان وطلاقة البيان ، ولا أظن أنه ألقى يوما
قصيدة له في حفل ، وإن زخرت المحافل بالمنشدين لقصائده
يتخيرهم لها تخيرا ، بل يعدم إعدادا . ومن طرائفه أنه نظم قصيدة
في رثاء « أمين الراجعي » ، وجده في البحث عن ينشدها في حفل
التأبين ، فخافه التوفيق . وألقيت القصائد في الحفل دون المراتبة
الشوقية ، فلم يكن من « شوقي » إلا أن دفع بقصيدته إلى صحيفة يومية
لتنشرها ، وقد أضاف إليها هذين البيتين ، مخاطبا المرثي :

إِنْ يُفْتَتْ فِيكَ مِنْبَرُ الْأَمْسِ شَعْرَى
إِنَّ لِي الْمَنْبَرَ الَّذِي أَنْ يَزُولَا
جَلَّ عَنْ مَنْشِدٍ سِوَى الدَّهْرِ
يَلْقِيهِ عَلَى الْغَابِرِينَ جَيْلًا فَجَيْلًا

وجلساء « شوقي » كانوا يعرفون منه أنه كثير ما ينسرح عنهم
بخواطره ، فإذا هو حاضر كغائب ، وكأنه في إغفاء . وبغثة تستيقظ
يده لتمتد إلى علبة اللقائف ، لا ليدخن منها لقافة ، بل ليكتب على
ظهرها ما منححه الوحي المفاجيء من أبيات .

ولم يكن « شوقي » فخم الشخص ، بارز الهيئة ، فكان إذا
سار وحده تخطته الأعين لا تباليه ، ومعظم أمسياته كان يقضيها
في مقعد أمامي من دور الخيالة « السينما » ، يشهد ما يظهر عليها من
روايات ، دون أن يعرفه أحد من الرواد ، إلا في الندرة .



وقد تملك « شوقي » ناصية لغتين : العربية والفرنسية ، وكان
على أدبهما مكيئا ، فأما في العربية فقد تعلم السرى — كما يقول —
على كواكب من علماء الأزهر ، وأدبائه ، وأما في الفرنسية فقد
اكتسبها أثناء مقامه للدرس في ربوع « باريس » ، وأغصان
شبابه به تميد . على أنه بدراسته وتنوع ثقافته وأخذه من كل من
التراث العربي والأوربي بنصيب ، اكتسب طابعاً خاصاً ، وذوقاً متميزاً
جعل منه شخصية أدبية مستقلة ، وإن كانت أصولها وجذورها
تستمد حيويتها من هنا ومن هنالك . وفي ذلك دليل على قوة تمثله

وهضمه لما قرأ وما درس من أفانين الأدب، ما شرق منه وما غرب
في قديم أو حديث .

وقد لبث «شوقي» يتزود من الأدب، منهوما لا يشبع، فلم
يكن يمل الاطلاع أو الاستماع لما يتلى عليه من روائع الأدباء
والمفكرين . وفيما يؤثر عنه أن «كامل كيلاني» أنهى إليه عزمه
على نشر ديوان «ابن زيدون»؛ و«شوقي» يومئذ في شيخوخته،
قد قارب أن يرد منهل منيته، فلم يصبر على الديوان حتى يطبع
كله، ورغب إلى «كامل كيلاني» في أن يعجل إليه ما يطبع من
الديوان أولا فأولا، فكان يبعث إليه بالكراسة تلو الكراسة
بعد الفراغ من طبعها على الفور، وهكذا تابع «شوقي» قراءة
ديوان رصيفه «ابن زيدون» قبل أن يجتمع شعره في كتاب مطبوع
تام . وظفر الديوان من «شوقي» بتلك القصيدة التي صدره بها،
ومطلعها :

يا «ابن زيدون» مرحبا قد أطلت التغيثا

وفي هذا البيت يتمثل حنين الشاعر إلى الشاعر، وإلقاء الأديب
للأديب، بعد الغربة والمغيب .

❖ ❖ ❖

وإذا كان «شوقي» قد احتفظ في قصائده ومطولاته بأوضاع

الشعر العربي التقليدي ، من وحدة الوزن ، ووحدة القافية ، ووحدة البيت ، فإن وحدة الموضوع أو وحدة الفكر في قصيده أو في منها في قصيد من سبقه من فحول الشعراء . فمن تجديده في الشعر العربي أن قصيدته كانت تخضع لهندسة ذهنية تستمد أصباغها وأضواءها من مخيلة متفنتة قادرة ، والموضوع في معظم قصائده متواصل الأطراف ، متماسك الأوصال ، متكامل الصور ، معانيه يأنس بعضها ببعض ، وأفكاره يتوضع فيها التركيز والتجسيد ، وكان كل قصيدة ذات خطة مرسومة في دقة وإحكام .

* * *

وقد حلا لبعض النقاد أن يقرنوا « شوقي » بـ « المتنبى » ، ويدينهما من أبعاد الزمان ألف من السنين ، وليس « المتنبى » بحاجة إلى من يركيه أو من ينصفه ، فقد فسخ له التاريخ الأدبي في رحابه وطبع أدبه بخاتم الخلود . ولكن « شوقي » في الحق لم يكن كـ « المتنبى » مقصور الحكمة والوصف على ما يعرض خلال القصائد التي تضمنت تلك الأغراض التقليدية المحصورة في مدح أو غزل أو حماسة أو رثاء ، ولم يكن مثله محدود الصلة في عصره بولاية الحكم وأمرام الحروب ، يدور حول أحداثهم وشخصياتهم ورحبه وخياله ، وإنما كان « شوقي » في الجملة قلب وطنه الخافق ،

ولسان أمته الناطق ، إذ استجاب أيما استجابة لكل ما اعتلج في
حياتنا الوطنية والسياسية والاجتماعية من مشاعر وأشواق ورغاب .
وكان شعره يمثل أصفى ما فى مجتمعنا العربى من وعى جديد ،
وأروع ما انبثقت عنه النهضة الحديثة من نزعات وإنجازات .
وهتافات . وهو القائل :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق وكان العزاء فى أحزانه .
لم يدع وشوقى ، جانباً من جوانب القول فى الوصف والتعبير
والاستيحاء إلا كان له فيه مجال . هو الذى أشاد بالقواعد الأخلاقية .
النبيلة ، والمبادئ الاجتماعية الرشيدة ، فى أبيات مشرقة سارت
مسير الأمثال . وهو الذى بشر بالمذاهب العصرية فى تحرير
العقول وتطوير الحياة والأخذ بأسباب الرقى والنهوض . وهو
الذى استلهم حكمة التاريخ ومجد الحضارة فيما خلفه لنا الأسلاف .
من تراث فكبرى وفنى وعمرانى ، وهو الذى تغنى بعظمة الشرق .
وشائج العروبة وهدى الدين ، وهو الذى نظر إلى مفاتن الطبيعة :
من نهر وجبل وروض ؛ نظرة فنان أصيل ، فوصفها بأسرارها
فى روعة وافتتان . وهو الذى عبر فى شعره كله عن فلسفة حيوية
واقعية عصرية ، تسير التطور ، وتدافع الحياة ، ولا تقنع بالتأمل
النظري المجرد ، الضارب فى أودية الأوهام .

وليس أدل على أن «شوقي» كان قوى الوعي بحاجة الأدب إلى التنمية والتطوير ، من أنه ألقى على نفسه ، وقد علت به السن ، تبعته جسيمة ، هي أن يضع بذرة جديدة في حقل الشعر العربي ، ينقله به من نطاق القصائد والمقطعات وما إليها من الأوضاع التقليدية السائدة ، إلى ميدان رحيب ، وأفق عريض ، وما كان للشعر العربي بذلك عهد من قبل .

وجد «شوقي» مكان المسرحية في الشعر العربي خاليا ، فأرسي فيه تلك الدعائم الوطيدة من مسرحياته : « مصرع كليوباترة » و « مجنون ليلى » و « قبير » و « عنترة » و « على بك الكبير » ... وإذا كان «الهمداني» قد أنشأ في الأدب العربي القديم «المقامات» وكان الأديب المجهول قد صنف « ألف ليلة وليلة » - فإن «شوقي» هو الذى وضع قواعد الشعر المسرحى ، فى ذلك الأدب العربى ، وبذلك أثبت قدرة الشعر العربى على بناء المسرحية نظما ، وكذلك أثبت استعداد رواد المسرح من جمهور النظارة للاستمتاع إلى شعر عربى صميم ، مع الاستمتاع بما يصور من مشاهد التمثيل .

ويبدو أن «شوقي» كان منذ نشأته يهفو إلى التأليف القصصى والمسرحى ، فقد ظهرت له أعمال تتصل بالناحية القصصية موضوعة ومترجمة ، حتى إنه وهو فى « باريس » يدرس ، ألف

بالشعر العامي المعروف بـ «الزجل» مسرحيته وعلى بك الكبير،
التي حوّلها فيما بعد إلى مسرحية بالشعر الفصيح .

والمسرحيات الشوقية تستمد موضوعاتها من التاريخ ، ولكن
شاعرنا كان يجعل من مواقفها ومن أحداثها تبشيراً وتزكية للنزعات
الوطنية والمبادئ التحررية والأفكار العصرية ، ولطالما تغنى
فيها بما للشعب العربي من مفاخر ، وما فيه من خصائص ،
وما أسهم به في موكب الحضارة الإنسانية من جهود .

* * *

أما مسرحيات «شوقي» في ميزان النقد الفني ، فليس عما
يغض منها الإقرار بأن نصيب الشعاعية فيها أقوى من نصيب
الحرفية في التأليف المسرحي : ولعل مسرحية «المجنون ليلى» هي
الأولى نجاحاً وتوفيقاً ، وسر ذلك أن قصة «المجنون» — في توقّد
عواطفها وحيوية موضوعها — أمدته بما استجابت له شاعريته إلى غاية
بعيدة . وما عرف عن «شوقي» في تأليفه لمسرحياته أنه كان يدير
الموضوع في رأسه بصورة شاملة ، ويتمشّل المواقف منفصلاً
بعضها عن بعض ، ويعكف على كل موقف فينظم ما يصوره به ،
ثم يجمع هذا الشتات ، ويربط بين أوصاله بما يتيسر له . وهذا
المنهج غير مأمون في الوفاء بالوحدة والتسلسل في البناء
المسرحي الفني .

حافظ "وليالى سطح"

على رأس العقد الأول من القرن العشرين ، كنت أصاحب
المرحوم والدى ، أحمد تيمور ، إلى «الكتبخانة» - دار الكتب
المصرية ، - فى الفينة بعد الفينة . وكان هو دأب الاختلاف
إليها ، يجعلها مثابته المفضلة ، فيها يقضى أطيب ساعات يومه ،
وأمتعها لديه ، إما خاليا إلى كتاب فريد يطالعه ، وإما جالسا إلى
صديق أديب يؤانسه .

ومن بين من لقيت مع أبى فى بعض تلك الزورات ، شاعر
النيل «حافظ إبراهيم» ، واسمه يومئذ يملأ الدنيا ويشغل الناس ،
كما قيل فى سلفه الشاعر «أبى الطيب» . إذ كانت الصحف تتناقل
قصائده فى الوطنية والقومية ، والأندية تعج بصوته منشداً شعره
فى مناسبات الأحداث والذكريات العامة التى تعقد لها المجمع وتقام
الحفلات .

لقيته على سلم الدار ، ينفت دختان لفافته . وكان حتما عليه
وعلى رواد الدار جميعا موظفين وزوارا ألا يشعلوا لفائف التبغ

في الأبهاء والقاعات ، فإذا اشتد الشغف بأحدهم أن يدخن ، وجب عليه أن يبرح الدار . ولا أقل من أن يبدأ إطلاق دخانه عند رأس السلم العريض .

رأيت امرأة تتهدل حلتها على جسده ؛ كأنها غير مفصلة عليه . أشعث الشارب ، منتفح الوجه ، كليل البصر . وفي يده عصا غليظة . يتوكأ عليها ، فلما قدمني والدي إليه ، وذكر اسمه لي ، أفكرته فيما بيني وبين نفسي ، وأحسست إحساس من خاب أمله . وارتسم في خاطري المثل السائر : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .

وما لبث « حافظ » أن طوح بعقب اللقافة ، وصعد معنا إلى الطبقة الأولى ، وقصدنا جميعاً مكتب الشيخ « البيلوى » ، وكان من أساطين الدار ؛ وهو شيخ اشتهر باثنتين : حرارة الدعابة والتسكيت ، ومتانة العلم والدين . وكأنه يطبق الحكمة الشعبية : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك » رجل ظريف بحباح ، إذا أدار مع جلسائه مناقشة ، تحرى ألا يخلط قوله بخشونة البحث . وجدية الدرس ، حرصاً منه على أن يرفه عنهم بالحديث المأنوس .

وكان « حافظ » بين الشيخ « البيلوى » في حلاوة النكتة ؛ وحرارة السخرية ، وفي إشاعة جو المفاكهة ، وروح المطاوعة ، بما يرويه من نوادر ، وما يتفنن فيه من أضاحيك .

وما استتر بنا المجلس ؛ حتى انطلقا معا في هذا الميدان ؛
ففرسى رهان ، يصولان ويجولان . وإذا الحجرة ترتج بمن فيها
من طرب ومراح ...

وقد عرفت « دار الكتب المصرية » ، في مطلع هذا العصر ؛
من أمثال « حافظ إبراهيم » أفذاذا ضمتهم جوانبها بوصفهم عاملين
فيها ، ولم يكن لهم في الواقع جسم عمل أو كبير غناء . وإنما كانت
جل صلتهم بها أن يترددوا عليها بانتظام أو دون انتظام . وكأنما
الدار في قوة وعيها وسلامة تقديرها ترحب بهؤلاء أحياء يتنفسون
أنفاسهم في جوها ، يقينا منها أن أمثالهم هم موضوعها الخالد على
وجه التاريخ ، وهم القيم الغالية الباقية في مستودع القرائح والأفهام
والأفلام ، سواء أكانوا أشخاصا يرددون أنفاس الحياة ، أم
« كانوا آثارا وذكريات علمية وأدبية في أوراق ومجلدات !

وينخيل إلى أن «حافظا» خشى أن تلتهم زيارتنا ؛ وليس له في
ذهني إلا تلك الصورة الهازلة لشاعر النيل ، فإني رأيته يطوى بساط
اللهو والمعاينة ، ويقبل على قائلنا في مباسطة :

هل تعرف الفرنسية ؟

فنفيت معرفتي بها . وأنبأته بأن اللغة الأجنبية التي أعلمها في
المدرسة هي الإنجليزية لا غير ... فصاح في ضجة :

كسلام فارغ ... أية إنجليزية هذه؟ اسمع يا بني : تعلم الفرنسية
فهي لغة الأدب الرفيع .

وواجه أبي يقول له :

ألمه أن يتعلم الفرنسية ... ليت له بمدرس خاص يلقنه
لها .

وانبرى يطنب في مزايا الفرنسية، وما تحويه آدابها من نفائس .
واستطرد إلى « فكتور هوجو » فأفاض في الكلام على شعره .
ونشره جميعاً ، مستشهداً بمختارات يترجمها إلى العربية في إعجاب
بما حوت من معان .

وأخيراً ضرب كسفي ، وقال :

عليك بالفرنسية ، عليك بها لتقرأ « فكتور هوجو » فإن لم
تقرأ غيره ، فكفي به أدباً .

وبعد حين . جاءني أبي بنسخة من تعريب « حافظ إبراهيم »
لكتاب « البؤساء » ألمع ذرة في أدب « فكتور هوجو » .
وقال لي :

هذا كتاب صديقنا شاعر النيل الذي التقيت به في « دار
الكتب » .

وعكفت على الكتاب أقرؤه ، على علو طبقة في بلاغة الإنشاء ؛
وفى سمعى بن صوت « حافظ » ، وهو يحثنى على أن أنعلم الفرنسية ،
لأزود من أدب « فكتور هوجو » على الأقل !

ووقع فى يدى من بعد ، كتاب « حافظ » القصصى المسمى :
« ليالى سطيج » ، وهو من تأليفه فوجدت أشد العجب من التباين
الشاسع بين المسلك الفنى فى هذا الكتاب الذى ألفه وبين القصة
الفرنسية التى ترجمها ، ويبدو أن شاعر العربية لم يشأ أن يحاكي نمط
القصة الغربية فى صيغتها الحديثة التى استمواها نموذجها فى كتاب
« البؤساء » ، وأثر أن يستوحى قالب كتابه القصصى من مآثورات
الأدب العربى ، وما تجددت به أنماطها فى العصر الحديث .

فما لاريب فيه أن ظهور كتاب « حديث عيسى بن هشام »
للرحوم « محمد المويلحى » كان هو الذى بعثه على أن يأخذ هذا
الآخذ ، وينسج على هذا المنوال ، فى « ليالى سطيج » . بيد أن
الفارق بينهما أن « المويلحى » كان فى موضوعات كتابه أجنح إلى
تصوير مشكلات المجتمع وظواهر العادات والأعراف والتقاليد ،
وأن « حافظ » كان يقصر همه ، إلا أقله ، على المسائل القومية ،
والقضايا السياسية ، وما يتصل بها من محن وأرزاء كانت مصر
تصطليها على أيدي غاصبي حقوقها الأجانب والدخلاء ، فإذا كان

كتاب «المويلحي» اجتماعياً في الغالب ، فإن كتاب «حافظ» ، كان سياسياً وطنياً في الأغلب ، ولكن كلا منهما استطاع أن يصب أفكاره في قالب حوارى فيه ابتكار وابتداع ، لاهو إلى القصة الفنية المستحدثة ، ولا هو إلى المقامة البلاغية المأثورة ، ولكنه فن يبانى يتخذ من مناقلة الحديث سبيلاً إلى بسط الآراء ، وعرض الصور ، والتلميح إلى المقاصد البعيدة ، والرمز للتخفايا العميقة ، بحيث تتوافر لذلك كله أمهات العناصر التي تجعل من العمل الكتابى نموذجاً أدبياً جميلاً ، فيه للعقول غناء ، وللنفوس شفاء ، وللأذواق متاع .

ويتجلى افتتاحان «حافظ» بأدب «المويلحي» فى أنه لا يقتصر على محاكاة أسلوبه ومنحاه ، بل يتعداه إلى الاقتباس منه فى أنشاء لياليه ، فهو يورد فصلاً كاملاً ، هو الفصل الذى يصف به «المويلحي» حديقة الحيوان قصرها ومتنزهاها فى حديث «عيسى بن هشام» .

وكتاب «حافظ» مجموعة أحاديث يرويها أحد أبناء النيل . ومن الغلو أن ندعوها قصصاً بالمعنى المفهوم من القصة ، ولعلمنا أولى بأن تسمى أحداً ومشاهدات وأوصافاً تستقل كل منها عن الأخرى أو تكاد ، وإن كانت ذات طابع واحد فى السرد والأسلوب .

وفي الكتاب بطلان : الأول الراوى نفسه ، والآخر «سطيح» ... أما الراوى فهو امرؤ يرى لأتمته عما تعانيه في حياتها الاجتماعية والسياسية ، وينشد لها وسائل الإصلاح ، ولا يألوها فقدأ ولو ما ، ولا يدخر عنها إرشاداً ونصحاً ... يصفه «حافظ» بقوله :

«أديب بائس ، وشاعر يائس ؛ دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث ؛ فلم تجد له عزماً ، ولم تصب منه حملاً ...» . وهو يعنى نفسه بلا مرأه .

وأما «سطيح» فهو حكيم صالح ، أقامه «حافظ» حكماً عدلاً فيما يعرض عليه من قضايا العصر ومشكلاته ، وهكذا جعل الراوى يرتاد الأماكن ، ويلتقى الناس ، فيشاهد ويناقش ويتأمل وينقد ، مفصلاً عما يجيش في صدره من آمال وآلام ، فإذا نفص جعبته لشيخ الحكمة «سطيح» سمع منه رأى الصائب والقول الفصل .

وكما اختار «المويلحى» بطله الأول من بين شخصيات العرب الروائية ، وهو «عيسى بن هشام» بطل المقامات الهمدانية ، اختار «حافظ» بالمثل بطله الذى سمي به كتابه ... لقد عاد إلى عصر الجاهلية يفتش في دقائمه ، فاستخرج منها عرافاً يدعى «سطيحاً» هو إلى شخصيات الأساطير أقرب منه إلى الشخصيات الحقيقية ، واسمه

« ربيع الذئبي » ، وقد لقبوه « سطيجا » ، لأنه كان لحما دون عظم ، لا يستطيع وقوفا ولا مشيا ، ولكنه مستقل على ظهره أبدا ، فإن أرادوا نقله طوره على الحصير . ولم يكن له رأس ولا عنق ، بل كان وجهه في صدره ، وقد تسكن بفتح الحبشة لليمن ، وبظهور الإسلام ، وكان من المعمّرين ، يعد من سنيه مئينا

والنظرة الإجمالية في الكتاب ، ترينا أنه يجاذبنا الحديث في كثير مما كانت تتناولها الصحف من موضوعات العصر ومشكلاته وشخصياته ، فهو سجل يمثل لنا مظهر آ من حياة مصر في تلك الحقبة ، ويمثل لنا في الوقت نفسه جانباً من حياة « حافظ » ونفسيته ، فقد كتبه بعد خروجه من الجيش وعودته من السودان ، على أتراتمه بالاشتراك في الحركة الثورية التي يسميها « حادث الذخيرة » .

وقد عانى « حافظ » في ذلك الحين ما عانى من شظف العيش ، فاستبان في الكتاب ما استشعره من السخط على الحياة ، والنقمة من انحلال الأخلاق ، ورأيناه يلجأ إلى حمى الفضيلة والدين ، ويظهر في ثوب الواعظ الغيور ...

وفي الكتاب موضوعات شتى ، فهو يتكلم على تحرير المرأة ، ويتصدى للدفاع عن « قاسم أمين » ، ثم يتحدث عن أهل « سورية » ،

ذاكر أمناءهم، مشيداً بأفضالهم على العربية. ثم يأتي دور الامتيازات الأجنبية، فيقول فيها :

« ما دام امتياز الأجانب، فلغير المصري عزة الجانب، الرومي يطعن بمديته، ويستظل بعلم دولته، والمصري يحمل القتل، ويخضع خضوع الذليل » .

ويتحدث في الصحافة، فيذكر صحافة السوء بالسوء، ويقول على لسان أحد الصحفيين شكياً :

« فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة والنعمش، وإما الرذيلة والعيش » .

ثم يذكر « شوقي » فينقده في غير رحمة، ثم يدافع عنه دفاع المستضعف، ويترك الحكم أخيراً إلى « سطيج »، فيقول :

« لو أنه منح من دقة المبانى، ما منح من رقة المعانى، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته، لكان شاعر كم غير مدافع، وواحدكم غير منازع » .

ولا ينسى الجامعة المصرية، فهو يحث المصريين ملحا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل إنشائها . . . ولما كانت ثورة السودان سببا فى خروجه من الجيش، فقد وجدناه يخصصها بنحو الخمس من كتابه، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها مندداً بالخنوة، منتقداً

سياسة الإنجليز أشد انتقاد ، ويعقب على هذا بحديث عن المعتمد البريطاني واللورد كرومر، وما كان من أفاعيله في مصر ، وفي هذا المقام ينقل مقالا بأكده للشيخ علي يوسف نشره في صحيفته المؤيدة ، عنوانه «السياسة الضعيفة العنيفة» ومغزاه أن المحتلين اضطروا إلى استعمال العنف ليستروا وراءه ضعف سياستهم، فالإنسان إذا ضعف في الحجة والرأى ، لجأ إلى القوة والعنف . وهو لا يغفل حادث «دشواي» المعروف . ودحافظ ، إذا تكلم في السياسة القومية كان في قوله سيطرة ، وفي رأيه صراحة ، لا يداجي ولا يحابي ، فهو الوطني الذي لا يطبق لوطنه هضبا ولا ضيما .

وفي الكتاب صفحات لطاف في وصف الطبيعة والنيـل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وما إلى ذلك من مجالى الحياة وظواهر المجتمع .

يصف «شيخة الزار» بقوله :

«تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور ، فتفتق بطلمها طبل آذانهم ، وتهن بأسماء الجن نواغم أبدانهم ، وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن ...»

وعلى الجملة ؛ فإن موضوعات الكتاب صدى لنفسية «دحافظ» فى جاهرة ووضوح ، ومرآة لعصره وملايسات قومه فى أمانة وصدق . أما إذا أردنا أن نوازن بين «ليالى سطيح» و «حديث عيسى بن

هشام، في قول موجز؛ فلنا أن نقرر أن «المويلحي، حاول الدنو من القصة الفنية بما رسم من شخصيات حية، وما صور من مشاهد شائعة. وأن «حافظا» كان معنياً ببسط الشكايات والشجون التي تعتمل في صدور الوطنيين الأحرار، بما يجدونه في بلادهم وبين قومهم في ذلك العهد الذي شاع فيه الاضطهاد والاستبداد.

أما الكتائبان ففي الطبقات العلى من الفصاحة والبلاغة.. تقرأ وهما فيخيل إليك أن كلام الكتائبين الكبيرين كان يختار ألفاظه، ويؤلف بينها فقرة فقرة؛ كما ينتقى الجوهرى حبات الماس، وينظمها في عقد ثمين. غير أن «المويلحي» كان يتبسط في أسلوب حوارهِ. ويجدله جدلاً طبيعياً. فتأتى جملة نابضة بالحياة، قريبة إلى الذوق العصري الشائع. في حين أن «حافظا» كان يتأنق ما وسعه التأنيق؛ لا يترخص من البداية إلى النهاية في كلمة أو عبارة؛ فإذا كان «المويلحي» أخف روحاً والطف مسلماً، فإن «حافظا» أمتن حبكاً وأدق سبكاً.

هذا؛ ولما كانت «ليالي سطيح» قد ظهرت في وقت لم يكن للقصة فيه نصيب وافر ومقام يذكر؛ فإننا نعتزف لحافظه بفضل المشاركة في السبق إلى اتخاذ النمط القصصى - على نحو ما - وسيلة للتعبير الأدبي الفنى عن ملامح عصره، ومشكلات مجتمعه.

وفي هذا من التجديد ما فيه.

طه حسين

فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصيغة
فنان ... ذلك هو نابغة أدبنا العربي :
طه حسين .

أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية
الحديثة من دعوات وهتافات في الوطنية والسياسة ، وفي العلم والدين ،
وفي الثقافة والأدب . فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة :
مصطفى كامل ومحمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ولطفى السيد
وأشباهم القليلين ، أولئك الذين أوفدوا نار الثورة وأضاءوا منار
الحرية وحملوا لواء التقدم والتطور . وهو بذلك أعرف المعارف
بين الشخصيات البارزة ، في عصرنا الحاضر . فما هو إذن بحاجة إلى
تعريف ، ومن يحاول ذلك فهو في الحق يحد من نطاقه غير المحدود ،
ويبغى أن يقرب إلى الأنظار هذا الأفق البعيد . ولكنني مع ذلك
يطيب لي أن أوجز تعريفه في بضعة عناصر :

فكر مستقل .

وروح خيرة .

وصبغة فنان .

وقد التأمت هذه العناصر في شخصية كُنت فيها بزة النبوغ
منذ البداية ، وظلت تؤتي ثمارها على الأيام وما تزال .

بالفكر المستقل استطاع « طه حسين » أن يبتث في حياتنا
العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه ، ويعت فينا نزعة
التجديد بأكرم ما تشير إليه . فحين شرع في مطلع حياته يدرس
الأدب العربي كان أجلى مظهر له فيما درس أنه لم يدعن لما تواضع
عليه السايقون من آراء ومسايقه من أحكام ، ولم يستسلم لما تعارف
عليه معاصروه من طرائق البحث وأنماط التأليف . ومن ثم كان
أول كتاب أخرجته — منذ نصف قرن — هو في الواقع أول
كتاب في أدبنا العربي يدرس بيئة الأديب وشخصيته والمؤثرات
التي اعتمدت فيه ، على هذا النهج الذي تجلى في كتاب « ذكرى
أبي العلاء » ... ثم توالى بحوثه ودراساته من بعد ، في النقد
الأدبي ، وفي الإصلاح التعليمي ، وفي التوجيه الاجتماعي ، وفي
التثقيف بوجه عام ، فكانت في جملتها مثلاً عالياً لاستقلال الفكر ،
وجدة الرأي ، وتميز الملاحظة الخاصة في كل ما يعبر به ويدعو إليه .
وبالروح الخيرة مضى « طه حسين » يرسم لنفسه سلوكاً

إنسانياً رفيعاً، لم يجد عنه حين جرى قلبه بتصوير الحياة والأحياء،
وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعي في أصالة وصدق، ولم يجد عنه
كذلك حين تفرس بالمناصب : أستاذاً وعميداً جامعياً ووزيراً
ورجالاً من رجالات الدولة، له سلطاته ومشورته وتوجيهه في
جلال الأعمال .

لقد كان « طه حسين » فيما قرىء له من قول ، وفيما أثر عنه
من عمل ، وفيما أسدى إلى الناس من سعي — إنساناً كبير القلب ،
سمح النفس ، رفيف الشعور ، فلا غرو أن تلتفت حوله القلوب ،
وأن تألفه النفوس ، وأن يحوطه معاصروه بهالة وهاجة من
مشاعر الحب والإعزاز، سواء في ذلك من تلقوا عنه ، ومن قرءوا
له ، ومن اتصلت أسبابهم بأسبابه ، ومن أفادوا منه على قرب أو
على بعد .

وأما صبغة الفنان في شخصية « طه حسين » فهي ميسم يطبع
أعماله الأدبية جميعاً ، حتى ما كان منها خالصاً للبحث والدرس ،
كما يفتقر إلى التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج . وأعني بذلك
الصبغة فيه أنه لا يتناول موضوعاً ولا يرسم صورة إلا كان
فيما يتناول وما يرسم فناً أصيلاً يواتيه الخلق والابتكار، ولا يكاد
يخطئه أو يخلفه . وبهذه الصبغة التي استيسرت له أصبح « طه حسين »

أخفى كتاب عصره عن أن يعلن اسمه بين يدي ما ينشر له . ذلك
بأن أسلوبه طعما ومذاقا ، به اللفظ والعبارة ، إنما هو أسلوب
أديب فذ ، ينفرد بخصائصه ، ولا تخفى ملاحظته ، هو أسلوب نابغة
أدبنا العربي : « طه حسين » .

توفيق الحكيم

بدأت القصة العصرية في بستان الأدب العربى نبتة ضئيلة المظهر تحاول جهد مستطاعها أن تشرئب وأن تزدهى ... نبتة غرسها نفر من ناشئة المدرسة الحديثة ، تسامت نفوسهم إلى إمداد أديبنا المصرى بذلك الفن الطارف من فنون البيان .

ولإن من الناس لمن كان يحوس خلال البستان ، فإذا لمح هذه النبتة فى إهابها الغض ، لم يزد على أن يوليها ابتسامة استهزاء وسخر ... وقليل أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تلك النبتة نظرة التفاؤل والاستبشار ، ويقدرّون لها فى قابل الأيام مجد النماء والازدهار .

على أن نبتة القصة ما فتئت تتعاق بأسباب البقاء ، مغالبة عثرات الطريق على ضعف واستحياء . حتى كان يوم شاهد فيه رواد البستان فى أحصى تلك النبتة المستضعفة زهرة فتية نضرة تتيه على غنمها الرطيب ، وتروع بمفاتنها الحسان ... ولم تسكن زهرة البستان

إلا قصة « أهل الكهف » تحمل اسم « توفيق الحكيم » ،
 طبع من هذا الكتاب بادىء بدء مائة نسخة ، فى معرض أنيق
 من طبع جميل ، على ورق فاخر . وعرضت للبيع عشرات من هذه
 المائة غالية المهر . . .

وتساءلت جمهرة من الناس ، وهم يطمون شفاهم فى عجب :
 « أهل الكهف » ... وهل هى إلا أسطورة أكل الدهر عليها
 وشرب ؟ ففيم يبعث اليوم رفاتهما فى هذا الكفن المزوق ، خدعة
 اللآعين ، وتزويرا على الأفهام ؟

و « توفيق الحكيم » ... لمن يكون هذا الاسم ؟ إنه ليس له فى
 نوادى الأدب صوت ، ولم يسبق له فى الصحف ذكر ، وماذاع له
 فى معبد الفسك قربان !

أترى الرجل أراد بكتابه أن يزود أبهاء الضيافة وقاعات
 الاستقبال فى بيوت السراة بتحفة من تلك التحف التى تتفاثر على
 المناضد ، تلمية للأنظار ، فى فترات الانتظار ؟ !

ولكن الكتاب استن طريقه إلى طائفة من أعلام الأدب
 الرفيع ، فراعته منه جدة فى الموضوع ، وعمق فى التفكير ، وقدرة
 على معالجة التأليف القصصى ، فى نطاق إنسانى المنزع ، يساير نهج
 الأدب الحى فى العالم المتحضر .

وما أسرع أن نهادى قادة الفكر هـذا النبأ السعيد : مولد
ضوء جديد .

وتهافت القراء ينشدون الكتاب . فلم تسعفهم به السوق . . .
وطلع على الناس عميد الأدب العربي « طه حسين » هاتفاً
« بأهل الكهف ، مشيداً بتلك الوثبة الكبرى في ميدان القصة
الفنية ، فأثارت هتفة العميد تطلع القوم ، فتتابعوا ينفضون
الأسواق ، سائلين : أين الكتاب ؟

وكان صاحب «أهل الكهف» في مرقبته ، على حذر واهتياج ،
طاوياً جناحه على النسخة الباقية من الكتاب ، ينظر إلى ذلك كله
بتمينك العينين النفاذتين يسطع منهما البريق . . .

ولما اطمأن إلى الأمر كل الاطمئنان ، واستوثق لنفسه كل
الاستيثاق ، خرج من مرقبته يزجي الطبعة الثانية من كتابه إلى
معشر القراء ، فإذا هم يتخاطفون نسخة ، فلم يكن بد من أن يطبع
الكتاب طبعة ثالثة ، حتى ما بقي أحد من صفوف المثقفين إلا قرأ
« أهل الكهف » ، فعرف « توفيق الحكيم » !

وكذلك كان لخروج « أهل الكهف » روعة المفاجأة ، وإنها
لخصلة في « توفيق الحكيم » ، أن يرتب ويدبر في سر ، وأن يعمل
جاهداً في صمت ، حتى إذا أوفى على الغاية من عمله تجلى به على الناس

يشير فيهم التطالع والتشوف ، ويستوى نفوسهم في إقبال وإعجاب .
ليس صاحبنا كمثل ذلك الذى يطهو ألوان طعامه برأى من
الغادين والرائحين ، فهم يتشممون شذا الطعام حالا بعد حال ،
ويتعرفون مذاقه على مراتب نضجه طيبا وغير طيب . . . ولكن
صاحبنا الألعى يريد نفسه على أن يتخلو إلى قدور طعامه بنجوة من
أعين الناس ، فلا يظهر للملأ إلا وقد أعد مائدته ناضجة الألوان ،
موفورة الحظ من سبك وجباك ، ومن تنسيق وتنميق ...

تواردت كتب « الحكيم » يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولكنها
متباينة الأنواع ، متجددة السمات ، لكل كتاب مذاق ، وعلى كل
كتاب طابع ، فلا تكرار ولا إعادة ، ومن ثم لا تزهيد ولا إملال
كتب الرجل القصة على تخالف نفاقها : طويلة وقصيرة ، وعلى
تعدد نوعها : تمثيلية وغير تمثيلية . ودون المذكرات واليوميات ، وديج
الفصول فى نقد الحياة والمجتمع ، وأرسل لوامعه الفلسفية فى أسرار
النفس ، وحقائق الوجود ، فكان فى كل ما جرى به قلبه مصطبغا
بصبغة وضاحية ، هى صبغة « الفكر » فى سبزه لأغوار الحياة ، وفى
توجيهه لتيار الرأى ، وفى تحليله لأحداث العيش ، وتعليقه
المتصاريق الناس .

فيا بين أعوام قلال ، تجمع إنتاج « الحكيم » فكان ضخما ،

وهو زبدة قريحة ، وعصارة فن . . . ولا غرو أن يتيسر ذلك
لرجل شب شبابه موهوبا بالأدب ، منهوما بالتزود من الثقافة .

احتوته « باريس » سنين من زهرة عمره ، فورد فيها مناهل
الفنون يسكرع ، المسارح تشغل ليلاليه ، والمحافل الموسيقية تهجأذه ،
وأشعة المعرفة في مدينة النور تضيء له الطريق أآى حل ا

ولكان هذه الحقبة من حياة « توفيق الحكيم » فترة التأهب
والاستعداد ، ومهلة التدبير والاختطاط ، وفاتحة التمرس بالكتابة
والتسجيل .

ولعل ما مزقه « الحكيم » في هاته الحقبة مما كتبه أكثر مما
أبقى عليه ، مسترييا بما صنع ، يائسا من يقرأ ، ضنينا بهذا الجهد
أن يذهب سدى ، غير بالغ بصاحبه مأربة . . .

ولكنه لم يكن يملك إلا أن يكتب وأن يسجل ، وإن محافى
غده ما فرغ منه فى أمسه ، فقد كان محدواً على أن يكون من أصحاب
الأقلام وجماعة الكتاب بقوة خافية ماضية ، كأنها القضاء فى خفائه
ومضائه ا

كان مكتوبا على « الحكيم » أن يبلغ رسالة فى الأدب الحديث ،
فسيق إلى أداها غير مخير ، ولو لم يكن راضيا بأن يؤدها لفعل
على كره . .

ما كاد الحكيم ، يثوب من سفره : ويحل في وطنه بين
 قومه ، حتى دأب على الكتابة والتأليف ، لا يعتاقه منصب من
 المناصب ، ولا تستأني به مشغلة من مشاغل العيش ... فطوى مع
 الأعوام مؤلفات مخطوطة ظلت في خدورها رهينة الأدراج
 لاتناولها العيون ، فإذا خلا إليها في محسها لبث يناجيها ويسألها :
 ترى هل يتاح لها أن تسفر ، وأن تخرج إلى العالم النسيح ،
 تتملأها الأنظار ؟

وإنه ليكون في بعض أرجاء الريف ، يمارس عمله المرسوم
 في حماية الأمن وتحقيق الجنايات ، فلا يحتويه بيته ، حتى يلتبس
 الأنس بتلك الأوراق التي يترقرق فيها نبع روحه وفيض فنه ،
 فيقلب الصحائف طائفة بعد طائفة ، يستمرىء ما فيها من غذاء
 ومتاع ، وهو عن كسب من النافذة يستنشئ أنسام العشيّة الرطاب ،
 وما يزال ماضيا في قراءة ما كتب ، حتى يملكه النوم على تلك
 الأهازيج ... فإذا استيقظت الشمس ، بعثت إليه رسولها يميظ عن
 عينيه خدر النعاس ، فيصحو وأوراقه على صدره مستلقية ، يحيطها
 بذراعيه ، فينفرج فمه عن ابتسامة استسلام ، ويستقبل يومه بما
 يحمل إليه من أعباء المنصب وتكاليف الحياة ، فيغادر الدار متأبطا
 حوافظ القضايا وأصابع التحقيق ، متوخيا دار النسيابة ليعرض

أشأت الوجوه من خفراء وحجاب ، ومن أعيان وغير أعيان ،
ومن متهمين على اختلاف الأشكال والألوان .

وتتعاقب حوالية المشاهد ، فإذا بيده تهرب من نطاق الأفضية
والتحقيقات ، مختلصة وقتاً بعد وقت ، لتسجل في قصاصات من
الورق صوراً وخواطر ، يهدى إليها الفكر ، ويوحى بها الفن .

وحين يفرغ الحكيم ، من ساعات عمله ، يكون جيبه قد
امتأ بهذه القصاصات التي لا تمت إلى الحكمة بسبب ... ولكنها
على مر الأيام تتخلق عملاً أدبياً هو مخطوط جديد ، حظه من
الحياة ذلك المحبس العتيق

كنت في هذه المخطوطات ذخيرة من الحيوية واليقظة والحرية ،
فعر عليها أن يلزمها صاحبها جانب الأسر ، وأن ينصرف عنها بما
بين يديه من شؤون حياته الراتبة ... فما هي إلا أن أزمعت هذه
المخطوطات أن تثار لنفسها عما تلقى ، وأن ترغب صاحبها على أن
يعرف لها حقها من التفرغ والتعهد ، وجمعت بها الثورة عليه ،
حتى أخضعته لسلطانها كل إخضاع ، فعصفت في ثورتها بما له من
وظيفة حكومية وعمل رسمي .

وتمخضت ثورة ذلك التيار الفكري العارم عن «توفيق الحكيم»
أدياً خالصاً لأدبه ، خالياً لمخطوطاته ، ينشر منها ما ينشر ، ملقياً

بنفسه في ذلك العباب الزاخر من جمهور القراء .
ومن أعاجيب الموافقات أن مؤلفاته ومخطوطاته التي قطعت
بينه وبين عالم الوظيفة ، وأطارته من منصات القضاء وكراسي
المناصب ، أثبت أن تعيده موظفا بعد لأى إلا بين دفتى كتاب ،
فإذا هو أخيراً مدير لدار الكتب ، ١ .

لسكل ظاهرة علة .. مامن ذلك بد ... فأية علة ياترى ساقها
القدر لتجلو عبقرية هذا الفنان وتبعثها على الإنتاج ؟

أما أنا — ورزق على الله — فأفولها جهرة ... إن « توفيق
الحكيم » بمؤلفاته وما أفادت عليه من جاه الأدب ومجد الفكر ،
مدين كل الدين بهذا الإنتاج الوافر وذلك الصيت البعيد لفنانة من
أساطين الأفراح والليالى الملاح ، في العهد الغابر ، تسمى
« الأسطى حميدة » .

وما أدري كيف كان التواصل بينهما وبينه على وجه التحقيق ،
ولكننى أعلم على يقين أنه لازمها في شرح صباه ، واستهواه من
صفتها اللحن والإيقاع ، فتعشق الموسيقى ما وسعه أن يتعشق ، وآثر
صحبته على كل صحبة .

وإني لأتمثله فتى ضامر العود ، ضئيل الشخص ، تبرق منه عينان
نفاذتان ملؤهما التطلع والشغف ، آخذاً مجلسه على مقربة من تلك

السيدة الطروب، وقد أخلد إليها يستمع بمجامع قلبه ، وهي تشدو .
في موكب من الأنعام .

ومنذ ذلك الحين تمكن حب الموسيقى من نفس « توفيق .
الحكيم ، وملك عليه النغمة أقطارليه ، فتسامى من أفق «الأسطى .
حميدة » إلى آفاق فنية رفيعة ، حتى أسلبه ذلك التصوف الموسيقى .
إلى روائع الأعلام من أمثال « بتهوفن » و « باخ ، و « موزار » ،
يبدل وقته قربانا لما تركوه من فن ، وتزودا بما أبدعوا من قدسى .
النغم !

وأكد أقرر في إيمان وثقة أن « الحكيم ، لو لم يسعفه القلم .
بصريره ، فينفس عن نزعته الفنية الأصيلة ، لظفرنا به كوكبا لامعا .
في أجواء الموسيقى والغناء .

أنت لا يعوزك أن تلبس خفقة الموسيقى تسرى في آثار .
« الحكيم ، مسرى الروح في الجسد ... وإنه والقلم في يمينه يصرف .
به موضوعه وفق مشيئته ، لسكانه موسيقار يتولى تحديد الوقع ،
وتدبير اللحن ، وتسميق الرنيم ، حتى يسود الموضوع توافق
وانسجام .

على أن موسيقى « الحكيم ، في فنه الأدبي ليست تلك الموسيقى .
العابرة التي تثير هزة الطروب العجول ، ولا يلبث أثرها أن يزول .

هى موسيقى عميقة تنبعث أخفى ما فى النفس من كوامن العواطف والنزعات ، وتحمل الروح إلى مجالات رحبية من التفكير الخصب.

« الإسكندرية » داره ، فيها نشأ ، وعلى شاطئه بجرها درج ، ومن « الإسكندرية » ورث خصال أهل النغور : عزه واعتداد ، وهمة للسعى ، وإقبال على الغنى والاكتساب . .

انظر إليه فى مشيئه ، وقد بدا مشرئبا ، ناهض الصدر ، مترنخ الأعطاف ، حثيث الخطوة ، كأبه أبدأ معجل يخشى فوات وقته المقسوم لإنجاز عمله .

يده تقبض على عصاه ، لامتوكتها عليها ، واسكنه يتخذها رمزا لمظهر القوة فيها . . .

وعصاه الحكيم ، تقول لك :

إن ما يديه صاحبي من فتوة وقوة ، ليس إلا وسيلة يستتر بها خلة الخشية والتحوط والحذر . وقد طبعت نفس صاحبي على أن يحذر ويتحوط ويخشى ، وقد نجلته مدينة البحر ، حيث الجو قلب ، وحيث الحياة تحدى على مغامرة وتطير ...

وإذا كانت المرأة نصف الإنسان على وجه عام ، فهمى نصف « توفيق الحكيم » على وجه خاص ... وبرهان ذلك حبه التقليدى لها ، أعنى عداوته إياها !

يؤمن « الحكيم » بقوة المرأة ، ويعرف لها سطوتها ، ومن ثم يحشأها ويحذرهما ويتحوط منها ، أو قل إنه يتطير بها ، اتقاء لما لها من فتنة وهيمنة وسلطان !

تخطئ الخطأ كله إذا لم تفسر تهوين « الحكيم » من شأن المرأة وإزراءه بها وتهجمه عليها بأن ذلك ليس إلا دفاعاً منه عن نفسه ، وإلا تظاهراً بالقوة والغلبة ، لكي يعالج بذلك حفظ التوازن بين المرأة وبينه ، وبث الطمأنينة من جانبها في قلبه ، حتى يكون ذلك سبيلاً إلى إخضاعها والظفر بها في يسر وأمان !

على أن « شهرزاد » في فطنتها الأصيلة لا يفوتها سر « توفيق الحكيم » .. فهي مزهوة بأن يسكون ذلك الفنان العبقري مشغولاً بمهاجمتها ، طاوياً في إهابه شخصية العدو الحبيب !

العقائد كما أراها

لم يكن عجبى شديداً حينما قرأت ما رواه بعض كتاب الصحافة عن أسرة «العقاد» من أنهم لما فزعوا إليه ، في ليلته الأخيرة ، وقد اشتدت به العلة ، ألفوا على وسادته كتاباً كان يقرأ فيه ، موضوعه : «جولوجية أفريقيا» .

فإنى كثيراً ما صادفت «العقاد» في الضحوات ، جالساً على مقعد في هذه المكتبة أو تلك ، وبجواره ركام من أحدث ما ورد من الكتب ، فيطيب لي أن أقترح خلوته بها ، وتصفحه لها ، وألقى نظرة عليها ، فإذا هي خليط من أمهات المؤلفات في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ ، وفي فروع دقيقة من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية ، وإذا هو يصطفي منها ، لا ما يتصل باختصاصه الأدبي والفكري وحده ، بل كل ما هو عميق دقيق في بحثه ، وما هو جديد موثوق به في موضوعه ، على تباين ضروب المعرفة وفنونها جميعاً . وما إن يظفر بطلبته منها ، حتى يمضى على الطريق بها ، متأبطاً إياها

سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ،
تلتمع عيناها حزما واعتزاماً ، ويقتلع خطاه في سيره اقتلاعا .

لقد لُزمت ، العقاد ، عادة المطالعة ، منذ عهد الحداثة ، حتى
أصبحت له ديدناً لا يملك منه خلاصاً . وعلى مر الأيام تأصل ذلك
فيه ، وتمكن منه ، حتى صارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى
على نفسه أن يشوبها بما يخرجها عن تلك الوحدة ، فعاش فرداً
رهبانياً في صومعة القرائح والعقول ، ويسر له بذلك أن يعتمر
زبد الفكر من أصفى منابعه ، وأن يتزود بها ، منتفعاً بكل ما يقرأ
من جدد وهزل ، ومن قديم وحديث ، وأن يكون في هذا المجال
إنساناً الروح ، عالمي النظرة ، وأن يشمل ذلك كله كما يشمل المراء
الغذاء ، فإذا هو دم يجري في الشرايين ليهب القوة والفتوة ،
فلا غرو أن تتجلى شخصيته كأنما هو موسوعة عربية ، أو معلمة
بشرية ، وأن تنسم مؤلفاته وفصوله بسمات الدرس والتحصيل
وسعة الاطلاع ، وتعب عن ارتباط متواصل بالثقافة المتطورة
المتجددة في شتى الآفاق .

و العقاد ، الذي كان يمثل في مفتتح نشاطه الأدبي والفكري
منازع الثوار على القديم في جميع مظاهره ، والدعاة إلى الثقافة العصرية
بكل معانيها ، كان مع ذلك من الفاقهين لعلوم العربية التي لا يعنى بها

إلا أهل الاختصاص والدارسين للتراث العربى أدبا وفكرا
وتاريخا وحضارة ، فلم تكن ثورته على القديم إلا ثورة على
التخلف والتوقف والجمود ، ولم تكن دعوته إلى الجديد إلا وصلا
للباضى الأصل بال حاضر المشهود ، وإمداداً له بما يعينه على السير
فى ركب الحياة إلى أمام .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح فى آثاره ، فالعيب الجلى
فى كتب العقاد ، أنها لا تصلح أن تزجى وقت القارىء قبيل النوم ،
حين يتكىء على الوسائد . حتى إن كتابه «سارة» - وهو قصة فنية -
يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية
يثير اليقظة ويشرد عن العيون ترفيق المنام ، فإن اتخذ قارىء
بكتب العقاد ، فاتخذ أحدها للتسلى بالقراءة قبيل نومه ، لم يلبث أن
يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق فى
عباب الفكر .

ولست أغلو فى القول بأن المرض الذى ألم د بالعقاد فى ريشق
شبابه ، كان له الأثر العظيم فى تكوين حياته ، وإبراز طابعه ، وقد
اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله
الأدبية ، كى تشبع نهمها إلى القراءة والدرس فى ذلك المعزل ، ومن

ثم أقبل «العقاد» يعب من فنون البيان ومناحي الثقافة ما ساع له أن يعب .

وكان من أثر الاحتجاز في صومعة القراءة والدرس أن تمكنت في خصائص «العقاد» ملكة التأمل في الحقائق، والتعمق في الأفكار، فاكنت فصوله تلك الصبغة من أسلوب حصين، وتفكير دقيق، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضاً أن استقر في قلب «العقاد» حب الحياة، والتشبث بها، والكفاح في سبيلها . فإنه لما واثق الظفر في عراك المرض، ازداد تعلقاً بالحياة، ورغبة في التمتع بأطايها، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتعظيم . وكان من عقبي ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار، فتجلى في حياته وفي إنتاجه هذا اللون من القوة والصلابة والصراع .

لقد وصف «العقاد» في حياته بأنه الكاتب الجبار، وعرف في مساجلاته بأنه عنيد عنيف . ولأنه لمطبوع حقاً على العنف والجירות، منذ نشأته، فقد رسم لنفسه خطة في الحياة، وأنفذها .

كما رسمها ، متخطيا في عصاميته التعليمية والتنشيطية كل عقبة ، وكأنه ينظر إلى « المتنبى » ، في قوله :

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
وأنت لذلك ترى الصرامة والجد طابعا بارزا في أدب «العقاد»
فالفكرة عنده لها أصالتها من المنطق ، والجملة بنيان مرصوص ،
والكلمة في الموقع الذي يكفل لها الجلال والخطر . فأدبه صورة
صادقة لسيرته ، وهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من
حياته العقلية والنفسية في صومعة مكتبته التي أولاها كل تقديس ،
وجعلت منه شأبا وقورا في عصر الشباب ، وشيخا نشيطا حين
بلغ سن الأشياء .

كان من جبروته في خاصة أمره ، ومن عنفه بنفسه في مجرى
حياته ، أنه لم يرض السير في طريق مهور مألوف ، لا بوصفه
شاعرا وكاتبا ، ولا بوصفه ناقدآ ومؤلفآ ، ولا بوصفه مترجما
لأقطاب الأدب وقادة الفكر وعابرة الإصلاح . . . فهو بين
معاصره في كل أولئك طراز وحده ، مجدد بالدعوة يحجر بها ،
مجدد بالنقد يدأب فيه ، مجدد بالنماذج يقدمها ، وهو في جملة أدبه
صاحب مبادأة وخلق وابتداع .

كان شاعرا . . .

عبر عن عواطفه إزاء الأحداث التي كان لها رنينها وصداها في نفسه، ومع الشخصيات التي اتصل بها من قرب أو من بعد، فإن شئت أن تقيس شعره بأوضاع الشعر العربي في متانة النسيج، وفصاحة اللفظ، وإحكام القافية، فلن تخرج من القياس بما يباعد بين «العقاد» وبين فحول الشعراء من قدامى ومحدثين. ولكنك بعد ذلك واجد في شعره وثبة تجتهد في أنماطه وموضوعاته وأغراضه. وعلى الرغم من الطابع التأمل الفلسفي فيما نظم فإن في كثير من قصائده ومقطعاته نفحات شاعرية مرهفة، تنبض بخوارج إنسانية رقيقة.

وكان كاتباً . . .

جرى قلبه في أدب ونقد، وفي سياسة واجتماع، فانفسح له مكان في الصدارة مع الكتاب الذين خرجوا بالمقالة العصرية من إطارها الإنشائي، وزخرفها اللفظي، ومعانيها المرددة، وأفكارها المحدودة، وسموا بها إلى مستوى رفيع من البيان، فيه يبرز الرأي، ويسود المنطق، وبه يتحقق الإقناع والتأثير في الأداء والتعبير. ولقد خاصم «العقاد» وخصم، وجادل وجودل، وما أحسب أن اثنين يختصمان أو يجادلان في الشهادة «للعقاد» بأقدار قلبه على أن يصوغ مقاله، كما يسوى الفنان برقه تمثاله . . .

وكان باحثاً مؤلفاً ...

فلم يكن يقنع في بحثه وتأليفه بجمع المعلومات، وسياسة الآراء وعرض الأفكار ، ولم يكن يعول على القول من المصادر والأسانيد إلا حيث لا يحيص من الاستشهاد والتدليل ، ولكنه كان يجعل من الموضوع الذي يتجرد لعرضه بناء خاصا به ، وفي البناء تسكن ذخيرة ثقافية عامرة ، وتتجلى إحاطة بجوانب الموضوع وما دار حوله من درس وتمحيص ، فكل كتاب له لا يعد بسطاً أو شرحاً ، أو تعليقا على مقررات سابقة ، بقدر ما يعد خلقاً فنياً له جودته وله خصائصه في الشكل والموضوع على السواء .

وكان مترجماً مؤرخاً ...

وفي عبقرياته وغيرها من تراجمه للأعلام من قادة وأدباء ، استطاع أن يسلك نهجا غير النهج الطبع المعهود ، من سرد مراحل الحياة ، والكشف عن أهم الأحداث ، فهو حين يرسم الشخصية التاريخية ، يكون في شأنها فكرة أساسية ، هي محور تلك الشخصية ومدار سلوكها في الحياة ، وأثرها في البيئة . وهذا المحور يهتدى إليه هو في بحثه ودرسه ، فيكشف عنه كما يكشف الغواص عن أولوة مكنونة في صدفتها ، أو كما يكشف الطبيب بتشخيصه عن علة هي السر فيما يبدو من ظواهر وأعراض . وهو في استبطانه لسرائر

الشخصية وتقييم أعمالها لا يستسلم للأحكام التي يتناقضها التاريخ ، بل يتوسل إلى صحة التقدير وإصابة الحكم بتحليل دقيق في ضوء من الحقائق النفسية والاجتماعية للسلوك الإنساني والجماعي ، وملاحظة لمقتضيات البيئة وما يكتنفها من أحوال وملايسات .
والذين طالعوا كتابه « ابن الرومي » واستخلصوا حياته من شعره ، أدركوا أول وهلة يوم صدر أنهم إزاء محاولة جديدة في دراسة الشعراء ، على هذا النحو ، فقد عمل عبقرية الشاعر ، وأوضح ما لها من خصائص ، وخرج منها بنتائج خليقة أن تبعث على النظر والتدبر .

وكذلك صنع « العقاد » حين عالج الترجمة للشاعر « أبي نواس » فلم يحدده شعره عن بواطن شخصيته ، فوضعها تحت مجهر نفاذ ، وعرض سلوكه على نظريات لها وزنها في علم النفس ، فاستبان له بذلك حقائق في رسم الشخصية النواسية ، وتحليل مسلكهم في العيش ، وتعليل ما تجلي فيها من طرافة أو شذوذ .

والحق أننا لو ألتسنا كتابا عصريا ينطبق عليه ما وصف به « ابن العميد » أديب العربية القديم « الجاحظ » ، لكان « العقاد » أديب العربية الحديث خير من ينطبق عليه . . . فيما رأيت — ذلك الوصف الذي أوجزه « ابن العميد » في قوله :

« كُتِبَ الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانياً ،

محمد فريد أبو عدي

في اسمه ما يحمل خصائص مسماه ، فإن اسم « أبي الحديد » يشعرك بالقوة والصرامة ، وإنه حقاً لرجل صلب العقيدة ، شديد المراس ، يتجلى الوفاق في سمته وشارته ، وتشيع الرزانة والاعتزان فيما يجري به قلبه ، فإذا تحدث إلى صاحبه في مجلس ، أو خاطب مستمعيه في منتدى ، كان الجدل أظهر سماته ، وإن إنتاجه الضخم المتنوع في الحكم والكيف ليدلّك أوفى الدلالة على ما فيه من عزم ووجد ، وعلى ما أخذ به نفسه من مثابة ومصابرة ، وعلى ما طبع عليه من روية وأناة .

وبما تميزت به شخصية « أبي الحديد » روح الاعتدال والتعقل والحكمة ، فأنت تكاد ترى فيه قاضياً أريباً حصيفاً ، لا يركن إلى رأى إلا عن تفهم وثبت واقتناع ، فإذا عبر عن رأيه لم يجمع به عاطفة ، ولم يغل في قول . ولعل فيما أكسبه هذه الخاصة أنه رجل تربية ، وما أشبه المرابي والقاضي في جملة من الخصائص التي لا بد منها لكي يؤدي كل منهما رسالته في مثاليها الأعلى ، ولعل دراسته الحقوقية

كذلك أمدت دراسته التربوية بما زاد هذه الخاصة في طبعه تأصلاً وازدهاراً ، فكان سلطانها على حياته الأدبية ، إلى جانب حياته العامة ، عميقاً كل العمق ، ناصعاً غاية النضوع .

وليس من ريب في أن تلك الخاصة هي التي نأت به عن أن يكون له في المعارك القلبية بين الأدباء والنقاد مشاركة ملحوظة ، فما كان دأب حديد ، من أولئك الذين يولعون بالمساجلات والمصاولات حول قضايا الفكر والأدب ، وما عرفناه يقحم نفسه بين أطراف الخصومة في هذه القضايا يمتة أو يسرة ، على حين أنه في الطليعة من رواد المذاهب الفكرية والاتجاهات الأدبية في عصرنا الحديث ، وأن له في هذه الريادة أثراً خصباً يتمثل في إنتاجه الموضوعي الفنى ، وفي تأييده النظرى للمبادئ النقدية التي بها يؤمن ، ولماها يعتمد . وهذه مؤلفاته القصصية وغير القصصية ترسم منهجه ، وتلك فصوله وأحاديثه تؤدى أمانة النقد على خير ما يؤديها ناقد مكين .

إذا قرأت له مؤلفاً قصصياً أدركت أول وهلة أنه كاتب لا يترك قلبه طلقاً على سجيته ، قانعاً منه بعفو الخاطر ، وفيض البديهة ، ولكنه يخطط لعمله الفنى خطة محكمة ، ويصور شخصياته بدقة مقصودة ، ويجعل لسعيه غاية بعيدة ، وذلك لا يتسق إلا لأديب

أوتى الموهبة ، فلم تهتز أعطافه غروراً بها ، ووقفا عندها ، بل
آثرا اكتساب المعرفة الوافية الواعية بأنماط الأدب وطرائقه ،
وحصر نفسه على الدراسة المتعمقة لفن القصة فى أروع ما كتب منه
وما نقد به ، على تعاقب العصور ، فى شرق وغرب .

نلح هذا كله مطويا ، يكشف عنه ما تطالعك به مؤلفاته ،
فإن مضيت تقرأ له بعض ما كتب من فصول وما ألقى من أحاديث ،
عرفت صراحة أى ناقد صحيح الرأى ، دقيق الملاحظة ، وأى أديب
واسع الاطلاع ، وثيق المعرفة ، ذلك الذى يلقى دروسا نقدية غالية
فى صورة فصول مرسله ، وأحاديث عابرة .

وقف فى د بجمع اللغة العربية ، ينوب عنه فى تنويع إنتاج
كاتب — أنا به أعرف من سواى — فأيناه يسترسل فى عرض
أدبى نقدى لتاريخ القصة وتطورها ، عرض يستخلص لك أدق
المعانى والأفكار ، فيصف الأديب بأنه د رائد البشرية ، ،
ويقول :

« كان الإنسان منذ القدم يتجه بفكره إلى جانبين من الوجود :
جانب الأشياء ، وجانب الحياة ، وكانت عدته فى هذا البحث .
المزدوج طوائف من رواد الإنسانية الذين كانوا يسرون فى الطليعة
بما وهبهم الخالق من ذكاء وإلهام ، فكان رواد البحث عن الأشياء .

هم العلماء ، وكان رواد البحث عن أسرار الحياة الإنسانية هم الأدباء بالمعنى الأوسع الذى يشمل كل أصحاب الفكر والتعبير منذ بدأت حياة العقل فى الإنسان .

ويعصور لك مكان القصة من الأدب الحديث ، فيقول :

« القصة فى صورتها الحالية ليست سوى نمو حديث فى الأدب العالمى ، وإنها طارئة عليه بعد أن مهدت لها المطابع واستعدت لها الشعوب منذ أصبحت مقدرة القراءة شائعة بين الناس . وليس القصص الحديث شيئاً آخر سوى المظهر الأخير للرائد الإنسانى الذى كان منذ القدم يتدسس فى الطبائع الإنسانية ويكشف الغطاء عن أسرارها ، متصلاً بها ، مستجيباً لها ، مهتزاً بما يكشفه منها ، متغنياً بما يلحج فيه من الجمال والسمو ، باعثاً روحه فى أنغامه الشجية ليلاً بها القلوب ويحلو بها البصائر . »

ويعرف مايعنيه بالأدب ، موضحاً ما بين الأدب الإنسانى .
والأدب القومى من صلة ، فيقول :

« إذا تكلمنا عن الأدب ، كان حديثنا دائماً عن الإنسانية ، لأن الأدب لايعرف حدود الدول ، ولاكتننا مع ذلك نعرف أننا جماعة من الإنسانية ، نحن نحس بأنفسنا ونعرف أننا وإن

كنا بشرا في محيط الإنسانية الجامع، فنحن أمة من البشر في محيطنا الأدبي، وإذا كان الأدباء من كل الألوان والأأم واللغات يطيعون وحي إلهامهم في خدمة الإنسانية المجردة، فإن لكل أمة أن تتفاخر بما أنتج أبناؤها في تلك الخدمة الكبرى.

ويقف بعد سنوات نائبا عن المجمع في تقدير قصص قالت جوائزها، فيفرغ بجهد أو يكاد ليبيان الضوابط التي تدرك بها أسرار البلاغة في فن القصة، فن هذه الضوابط: تصويرها للشخص تصويرا واضحا بحيث يكونون عالما صادقا نابضا بالحياة، ومنها: تصوير ما يحيط بهؤلاء الشخصيات بحيث يجعل عالمهم الذي يعيشون فيه ممثلا بهم، حتى يحمل القارئ على أن يعيش معهم في ذلك العالم الواضح المليء، ومنها: أن تكون القصة مشبهة للحياة في دلائلها دون تكلف أو تلفيق أو تظاهر، فكلما كانت الحركة أكثر مرونة كانت أقل ضججة وجلبة. ورأس الضوابط جميعاً: أن يكون للقصة موضوع فيه من المواقف الإنسانية ما يقف عنده العقل للتأمل، فامتياز الأديب في وقوفه عند الزوايا التي تتضح له فيها معاني الحياة الدقيقة، فإذا ما نقلها إلى القراء تجاوزوا معه.

والاستاذ أبو حديد، كاتب ناثر لعرويته، غيور على قوميته، يطبع نزوعه الوطني الصميم أعماله جميعاً، بيد أنه استطاع أن

(٩)

يعصم نفسه في هذا التيار العاطفي الجارف من النهافت والتهور ،
 قشورته وغيرته وليدة إيمان صادق ، وحمية باطنة ، لا تعبر عن
 وجودها برفع الصوت وقرع الطبل ، ولكنها تستحيل طاقة
 فكرية دافعة ، وقوة أدبية عارمة ، تستعين بأجداد الماضي وأوضاع
 الحاضر وأمانى المستقبل ، لتعمل على إيقاظ الروح القومى وإنعاشه ،
 وتغنى في تركية المثل والأهداف المرموقة لإحياء أمة حرة في
 وطن كريم .

ومن مظاهر هذا النزوع عنده تأثره البالغ بالأدب الشعبى الذى .
 هو صورة صادقة للنفس البشرية ، وتمثيل لما يحس به عامة الناس من
 آلام وآمال ، وإنه ليصف لنا الشاعر الشعبى صاحب الربابة يوم .
 استمع إليه وهو شاب بعد ، فيقول : « كان ينشد كأنه يحدث نفسه
 بحلم يراه خلال سنة من النوم ، أو يناجى أطيافا تظهر له من عالم
 مستور ، تهتف له بأمرار الإنسانية التى مازالت منذ القدم تملأ البشر
 آملا وتجعل لحياتهم مقصدا . » وهو يهدى إلى ذلك القصص الشعبى .
 المنشد فريدة من فرائده ، هى قصة « الوعاء المرمرى » ، فيقول :
 « إنها تحية للشاعر الذى مازالت صورته ماثلة فى الذكري ، لا يذكر
 أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك فلوب طلاب الحرية نحو
 عزاءات الغد الطالع من ضمير الغيب ، فهذه القصة هى بعض الأصدا .

الباقية في القلب من تلك الأناشيد البارة التي كانت القلوب
تتجارب لها ، عندما كانت الأيدي تسخو بقليلها ، والقلب يجود
بكثيره ، عندما كانت الصور والمعاني أئمن وأكثر قوة من الحقائق
والمادة ...

والاستاذ «أبو حديد» فوق ذلك كله من أولئك الذين هيأتهم
ملايسات النهضة الحديثة في مطلع هذا القرن ليكونوا رسل تجديد
ودعائم تطوير للأدب العربي ، واتجاه به إلى مستوى يساير به تطور
الأدب العالمي ، فهو من الصفوة الذين بشروا بالأدب القصصي ، ورأوا
فيه الصيغة الجديدة للتعبير الفني عن الحياة والمجتمع ، وأذكر أنني قرأت
له منذ نصف قرن أو نحوه قصة «مذكرات محمد» تلك التي كتبها
وهو في زهرة عمره ، وقد ترادفت بعد ذلك مؤلفاته القصصية
تكشف عن أستاذية متمكنة في هذا المضمار ، وتعمل على تأصيل
ذلك الفن العصري المستحدث في أدب العروبة على أوضاعه
السليمة .

وقد برزت معالم التجديد القصصي في مؤلفات «أبي حديد» في
جانين : أحدهما موضوعي ، والآخر شكلي .

ففي الجانب الموضوعي وقف في محارب التاريخ العربي يكتنه
ما فيه من بطولة ، ويستلهم منه كرائم المعاني الإنسانية التي يأنس

فيها عصرنا الحاضر ما يظهر به نفسه ، ويقوى به طموحه ، ويبصره .
 بأسباب القوة والمنعة والعزة في معركة الحياة ، فليس القصص
 التاريخي أو التاريخ القصصى عنده تمثيلاً محضاً للماضي ، ولا تحليلاً
 مجرداً لما جرى فيه ، ولكنه وصل بين الماضي والحاضر ، وصل
 يقوم على تعرف الأسباب الوثيقة بين الإنسان في أمسه البعيد
 ويومه المشهود .

وأما تجديده في الجانب الشكلي ، فهو محاولته الرشيدة أن يخرج
 بالشعر العربي من سجن القوافي الملتزمة والأوزان بوحداها المألوفة
 إلى أفق الحرية والانطلاق ، وذلك لكي يستطيع الشاعر العربي
 أن يصوغ الملاحم والتمثيلات ، وما هو بقادر على ذلك إذا لم يتحرر
 من قيد التزام القافية وقيد الاستمساك بالوزن المتعارف المأثور ،
 وما أحوج أدب العروبة إلى أن يكون حظه من الشعر الملحمي
 والتمثيلي غير منقوص .

وإذا جاز الحكم على أدب « أبي حديد » في كثير مما كتب بأنه
 أقرب إلى الأدب الهادف ، فلاشك في أن الهدف فيه ليس كل
 ما يحتموه ، ولاشك في أن فنه لم يقف عند الظواهر ، ولم يكتف
 بالحدث العابر ، ولم يكن كذلك بالأدب الذي يشوبه الغرض
 والاجتلاب ، فالحياة في قصصه تتحرك كما تراها العيون ، والأحداث

تتطور وفق السنن الطبيعية الجارية . والموضوعات التي تتدفق فيها تلك الحياة ، وتدور حولها هذه الأحداث ، موضوعات لا تباين النفس البشرية فيما لها من غرائز ونزعات ، فلا ضير على الفن القصصى من الهدف القومى أو الاجتماعى متى استطاع الكاتب أن يعلو فى موضوعيته على نطاق الخطابة والموعظة ، أو الدرس والتعليم ، ويخلص بعمله إلى أن يكون أدبا فنيا له بالحياة سبب وثيق ، وبينه وبين الإنسان نسب عريق .

وإن من المناصب لما يسعد بمن يتولونه ، إذ يصفون عليه من جاههم أضعاف ما يسدى إليهم من الجدوى . وكذلك الجوائز ، فرب جائزة تشرق هالتها بمن تهدى إليهم من الأكفاء ، ولامراء فى أن أكفاء جائزة الدولة التقديرية فى الأدب سواء منهم من سبقت إليهم بالأمس ، ومن سوف تلاحقهم فى الغد ، يأنسون بزماله « أبى حديد » لهم فى هذه الجائزة الرفيعة ، ويجدون فى أنفسهم لذلك أجمل معانى الإعزاز والتكريم .

عزیز أباطة

جميل أن نلتقي الليلة فيما يشبه «سوق عكاظ» لتكريم شاعرنا العربي العروبي «عزیز أباطة»، على أثر تكريم الدولة له بالجماعة التقديرية في الأدب. فإن التقاءنا على هذا النحو في مجتمعنا الأدبي هو رجع الصدى لذلك التكريم الرسمي، وهو في معناه إعراب عن الترحيب بهذا التقدير، وإحاطته بهالة من التأييد والتعزیز.

على أن هذا التكريم المزدوج، أو التقدير الجامع، لشاعرنا «عزیز أباطة»، ليحمل جملة من الدلالات، أجمالها في كلمات.

فالاستاذ «عزیز أباطة» سليل أسرة اتصلت وشائجها بالأدب، وكان اتصالها به أنفس ما يرثه أخلافها عن أسلافها من الحسب. وفي خلال مائة السنة الماضية، كان من الأباطين من يغرم بحفظ التراث العربي ولم شتاته، ومن يأخذ بناصر النهضة التي تعمل على إحياء هذا التراث التليد العتيق، وقد عرفنا من كبارهم من كان يحسّل حياة الأدباء بأسنى الحفارات والرعايات. أجل، كان

أولئك الأباطيون يعرفون لشيوخ الأدب أقدارهم، ويمدون لناشئته
 ظلهم، وما زالوا كذلك حتى نجم من صميمهم من شرف بنبوغه
 الأدب، ومن أنس بزمالته الأدياء... فإذا كرمت الدولة اليوم
 «عزيز أباطة»، وإذا نحن اجتمعنا الليلة في مناسبة هذا التكريم،
 فإننا جميعا نرد بذلك بعض الفضل إلى أسرة سبقت إلى الفضل كله
 في عهد كان الأدب فيها مغموط القدر، مغمور الذكر، وكان
 الأدياء فيها لا يعرفون لهم في سوق الحياة الكريمة من نصيب.

ليس هذا وحده، كل ما يحمله تكريم الأستاذ «عزيز أباطة»
 من الدلالات. فالحق أن تكريمه ينصب أكثر ما ينصب على تلك
 الخطة التي اختطها لأدبه، وصرف إليها معظم جهده، ووفق فيها
 توفيقا أحسبه لم يتح لسواه. فنحن إذا نظرنا إلى مسرحياته،
 وأذكر منها «قيس لبنى»، و«العباسة»، و«الناصر»، و«شجرة الدر»،
 و«قافلة النور»، ألفيناها في مجموعها تستلهم أيجاد الحضارة العربية،
 وأحداث تاريخها الجسماني، وتتجه في روحها وفلسفتها وجهة
 التعبير عن القومية العربية بما لها من أواصر تصل بين العرب في
 كل مكان، وتزكي في نفوسهم ما لهم من شخصية مستقلة بقوامها
 على مر الزمان. وبهذا مثل شاعر المسرحية الكبير في أعماله
 الأدبية الرائعة، تلك البيئة العربية والشيمة العربية، تمثيلا يقوم

على التحليل النفسى والتصوير الفنى ، فكانت جلاء لصفحات من تاريخنا المشرق ، وبهذا أيضاً سجل استجابته الواعية لاسمى ما اعتلج بين جوانح المجتمع العربى من مشاعر وأهداف . . . فإذا كرمت الدولة اليوم « عزيز أباطة » ، وإذا اجتمعنا الليلة فى مناسبة هذا التكریم ، فإنما نكرم فيما نكرم معنى الوفاء للقومية ، ومعنى البر بأجداد العروبة ، فى مسرحيات تجمع بين جودة الفن ، وروعة الأدب ، وأصالة التاريخ .

وثمة دلالة أخرى ، لعلمها أولى الدلالات بالتقديم ، تلك هى أن شاعرنا « عزيز أباطة » أجدر الناس بأن نلقبه بلقب « النابغة » فقد انبثق بين الشعراء كما تنبثق عين الماء جارية بالعذب الفرات . فاجأ معاصريه بشعره ، وقد هدف إلى الأربعين أو جاوزها بقليل ، فإذا هو شعر نفخ جزل أصيل ، لا تعوزه مراحل الدربة والتجريب ، وإذا هو فى دياجته ترقى إلى عليا طبقات البلاغة العربية لفظاً وأسلوباً ، إلى ذوق عربى مصفى فى انتقاء المأفوس من الكلم ، والتشكيب عن المجفو من التراكيب . وما أسرع أن لمع اسمه ، وسطع نجمه ، وسبق إلى الصف الأول من شعراء عصره ، متخطياً من كانوا يطالعون الناس بأشعارهم قبله بسنين . وما هى إلا أن أصبح له فى تأصيل الأدب المسرحى الشعرى باع مديد ، فلقد رعى نبته

القصّة الشعرية التي وضع د شوقي ، من قبله غراسها ، فزكت على يديه ، وازدهرت أى ازدهار ، وأخرج منها تلك النماذج الفنية الممتازة التي تدل على خبرة بمطالب التأليف المسرحي ، وتكشف عن بصارة ورهافة حس بما تنطوى عليه الأحداث من قيم ومثل إنسانية ، إلى جانب عرضها لمشكلات اجتماعية يتشابه فيها الأمس واليوم ، ويتصل فيها الماضي بالحاضر فإن نحن كرّمنا نابتةتنا « عزيز أباطة » فإنما نكرم النبوغ الذي تهيأ له ، والجهد الدائب الذي صبر نفسه عليه . والأمة التي تحتفي بنوابغها تعبر عن عرفانها لأعر ما تجود به الأيام على الأمم من عطايا وهبات .

وحسبنا أخيراً من تكريم الأستاذ « عزيز أباطة » أنه سنّى لنا الالتقاء في هذا المهرجان الكبير . وما يدرينا لعله موعّد مع القدر لمولد نابغة جديد بيننا ، بمن نسمع لهم أو يسمعون لنا ، كما كانت « سوق عكاظ » في عصر العربية الأول : ملهبة للقرايح والمملكات ، منبهة للشعر والشعراء

خليل مردم

قبل عشر من السنين ، كنت في زورة دلبنان ، أنس عندها
دراحة من الكد في شتاء مضى ، ونجوة من القيقظ في صيف حضر .

وطابت نفسي بما قضيت هنالك من فترة استجمام وأنس بالحياة
فتشوقت إلى أن أزور دمشق ؛ وأن أجدد العهد بمن ألفت فيها
من صحابة الأدب والفكر ؛ وأن أعرف بمن لم أسعد بمعرفتهم بعد .
وكان في طليعة من هفت النفس إلى رؤيتهم يومئذ شاعرنا المتفرد
«خليل مردم» ، ولسان حالينا يجيه بقول شاعر مثله :

أجدة لنا طيب المكان وحسنه

منى ؛ فتمنينا ؛ فكنت الأمانيا .

هداني طريق إلى داره أحد الرفاق ؛ فلما أقبلت عليها انتشيت
بما يسطع فيها من عطر شرقي أصيل ، وما يكسوها من طابع عربي
صميم . فإن هذه الدار لتمنح العين والروح متعة استشفاف الأطياف
المحببة من تلك الأجواء التي تحف بالخواطر والأذهان ، وتخف

بها إلى حيث تتمثل لنا ذكريات ماضينا العزيز .

ما وطئت قدماى عتبة الباب ، حتى صاغت سمعى أول وهلة
نغمة هفافة لطيفة ، إنها قرقرة ماء ، سرعان ما استبان لى مصدرها ،
فقد لاحت لعينى ، وأنا أجوز المدخل المسقوف ، مخايل خضرة
نضرة فى فناء يمشى فيه جدول ماء على استحياء .

كان الأصيل قد لملم أذياله ، وحانت ساعة الغروب تحمل
بواذر عتمة العشى ، فتضنى على الدار من يدا من سكينه وهدوء .

حلت منظر الضيوف ، واستشعرت من فورى خشوعا رفيعا
يملا النفس من طمأنينة وصفاء ، خشوعا يشبه ما يستشعره المؤمن
حين يؤم بيتا من بيوت العبادة ، أو ما يستشعره الأديب المتذوق
حين تتأدى إليه روحانية بيت من أبيات الشعر .

بعد قليل تناهت إلينسا خفقات خطو هين راتب ، وإذارب
الدار يهل علينا فى سمته الوقور ، وعلى محياه ابتسامة وادعة ، وما
أسرع أن تباد لنا التحايا يعبر بها كلانا لصاحبه عن شوق
أيماشوق .

ذلكم كان لقائى الأول المرحوم د خليل مردم ، ، وذلكم هو
آخر ما كان بيننا من لقاء . ولكنانى بالقدر المغيب قد دبر لى أن
ألقاه ذات يوم هذا اللقاء الفذ ، لكىما يزداد إحساسى بلوعة

الفجیعة فیہ یوم منعاہ ، ولکیا تتوهج فی مخیلتی صورته کلها
خطرت لی ذکره ، إذ ینازعنی إلیه ما أقره ذلك اللقاء الفذ فی
نفسی من ألفه به ومودة له وإعزاز .

علی أن التلاقی بالمشاهدة والعیان لیس هو کل شیء فی علاقات
الصدقة بین رفقة القرطاس والقلم : فشمه لقاء موصول بینهم أعق
أثراً فی تعریف بعضهم ببعض ، وفی توثیق تلك الأواصر بین
أرواحهم وما تناغت به خواطرهم علی صفحات الکتب ، وفی
التقرب بین أشخاصهم التي تتمثل فی مخیلاتهم علی القرب والبعد ،
ولعل الشخصية فی هذا العالم الخیالی الشامل الطلیق أصدق أنباء
وأجل خطراً وأطول بقاء علی الزمن الممدود .

حین لا قیت «خلیل مردم» فی تلك الجلسة التاریخیة ؛ أحسست
أن هذا المحیاً الهادیء الجیاش بالمشاعر البعیده الغور لم یکن غریبا
عنی ؛ وأن تلك السمات التي ألحها فی حدیثه لیسست جدیدة علی .
بل إن ذلك الصوت الرصین الخافت الذی یتمیز به أصحاب الشعور
المرهف والتفکیر الدقیق قد التقطته أذنانی من قبل . فما کل أولئك
إلا معالم كانت ترسل إلی نفسی کلها طالعت شعره الحافل بشتی
النوازع التي تكشف عن روح صوفیة شفافة تتجلی لها سرائر
الحیاة .

حقاً ؛ كنت صديقاً ولخليل مردم، قبل أن أراه . فلما حظيت معه بتلك الجلسة الصافية التي لم تستغرق إلا ساعة وبعض ساعة . وهو يتحدث إلى في فنون الأدب والثقافة ، وجدت في حديثه مصداق تلك الشخصية التي عرفتها له في شعره .

لقد استبان لي فيه خلتان مميزتان متكاملتان ، تدعم إحداها الأخرى . أما الخلة الأولى فإيمان بالعروبة راسخ لا يعلو عليه إيمان . وأما الخلة الأخرى فالحفاظ على التقاليد الشرقية في إصرار ليس وراءه إصرار .

كان كل عرق فيه ينبض بهاتين الخلتين : جهده عليهما موقوف ، وحماسته في سبيلهما لا تفتر . وآية ذلك ما خطه من دراسات في الأدب ، وما نهض بتحقيقه ونشره من ذخائر الكتب . بل إنه في شتى مناصبه العلمية في المجمع العربي ، ومناصبه السياسية في الدولة ، كان يمثل تلكم الخلتين في مختلف مظاهرها القومية واللغوية والأدبية على السواء .

لم تكن عروبيته أو شوقيته عن جهالة أو تعصب أو جود ، فذلكم رجل تنوعت مناحي ثقافته ، وتعددت أسفاره ورحلاته ، تعلم من اللغات الأجنبية ما تعلم ، وأفاد من الاطلاع ما أفاد ، وعرف من أنماط الحضارة الفكرية والاجتماعية ما يوسع أفق

الذهن ، ويفسح مجال الرأى ، ويهب قوة التأثر والاختيار والاعتناع ، فإذا آمن بعد ذلك بمقومات العروبة وخصائص الشرق ، فإنما هو إيمان عن وعى وبصيرة وتقدير ، وإذا أثر روح الحفاظ للتقاليد والتؤدة فى اصطناع الجديد من الأنماط فإنما هو الإيثار القائم على العقيدة المستنيرة والرأى المختمر .

ربما كان المرحوم « خليل مردم » فى تحمسه للتقديم ، وفى مصادرتة لدعوات التجديد ، لا يخلو من بعض الغلو ، ولكن مرد ذلك إلى ما امتلأت به نفسه من حب للعروبة والشرق ، وهو حب شاعر ، ولا تثريب على من أحب أن يغلو ، ولا سيما الشعراء ، وصدق شاعرنا « شوقى » فى قوله :

« ولكن من أحبّ الشئ حابى »

ليست روح المحافظة بما يستهان به فى تقويم النهضة ، وفى توفير التعادلية للمجتمع ، فالمحافظة إنما تمثل فلسفة لها دعائمها فى الحياة ، ولها نصيبها من الحق ، فهى عامل من عوامل الخير ، وعنصر من عناصر السداد فى التقدم ولا غناء عنه فى فورات التطور والتوثب التى تفتقر إليها الأمم عند الصحوة من سبات بعيد ، ولعلنا أحوج إلى قبس من روح المحافظة فى عالم قد اضطربت فيه موازين القيم ،

واختلطت معالم الأوضاع، وعز استخلاص الحقيقة المجردة في لبائها،
الصميم وجوهرها المصفى .

في مثل هذه الحقبة تبدو المحافظة أركانها ثابتة ، ومعالمها واضحة ،
ومغبتها مأمونة ، سريعا ما ترجى منها السلامة . ذلك لأن المحافظة
تستند إلى تجارب مرت ، وخبرة استنفدت ، فقضاياها ركائز ثابتة .
في بناء المجتمع ، ومفاهيمها جلية في أذهان الناس ، ومن ثم تطمئن
إليها الأئمة ، وتسكن الخواطر ، وتمضى في طريقها الخطى على
غير قلق .

نحن في حاجة إلى مجتدين يشقون في الحياة آفاقا بمجولة ،
ويبشرون في المجتمع بقيم لم تكن مألوفة ، فتلك سنة التطور
والتقدم ، وليس من سنة الوجود مناص . ولكتنا في حاجة كذلك
إلى من يدعم حياتنا الحاضرة بتقاليدها الموروثة ، ريثما تقوم
بازائها حياة جديدة مأمولة ، فالهدم قبل البناء شطط ، والبناء على
الخوا لا يقوم . والحاضر والمستقبل متداخلان لا يفصل بينهما
فاصل متميز ، كلاهما يأخذ من الآخر قبل أن تقبين بينهما الفواصل
الحاسمة ، كما يلج النهار في الليل ، أو كما يلج الليل في النهار الظلمة .
الريقة تمازج النور حين الغروب ، والضوء الهين يخاطب الغبشة في
مطلع الفجر .

لابد لنا من روح المحافظة ، فهي ضرورة اجتماعية ، لأنها
إبقاء على مقومات حياتنا الحاضرة ، حتى تتجلى الفكرة الطارئة ،
وتستقر الأوضاع الجديدة . فإن هدمنا قبل أن نبني وقفنا في عهد
انتقال يسوده الاضطراب ، ولعل استبقاء مقومات القديم خلال
عهد التجديد مما يعين على البناء المتين في غير ارتجال ، ومما يتيح
للتجديد فرصة التمكن والاتزان .

وهكذا كانت روح «المحافظة» عند «خليل مردم» وليد تفكير
فلسفي عميق في التطور الاجتماعي الرشيد .

كان شاعراً محافظاً ، ولكنه لم يكن شاعراً بدوياً في
الموضوعات والأخيلة والتصورات ، ولا في المشاعر والأفكار ، وإنما
كان شاعراً عصرياً استفاد بما اطلع عليه في عصره من أنماط الحياة
الاجتماعية وآدابها وأفكارها على نطاق فسيح ، فاصطبغ بها عقله
ووجدانه وذوقه ، ولكنه احتفظ في شعره بالقوالب الشعرية
المتعارفة ، وبأداة التعبير المألوفة ، أو بما يسمى «عمود الشعر» في
الأدب العربي . وتلك هي صورته الشعرية وأخيلته وموضوعاته
تمثل عصره الزاهي بأزكى ما يعتلج فيه من أفكار ومشاعر وأهداف
وذلك هو «تجديد المحافظين» ، يصلون الماضي بالحاضر ، فلا ينقطع
بجراه ، ويجعلون من أدب العروبة سلالة مستبينة الخصائص مصنوعة

الأنساب ، مبرأة من شوائب الهجنة والاختلاط ، كشأن التجديد
عند شعراء العباسيين الأول . حافظوا على عمود الشعر العربي ،
وتصرفوا في الموضوعات والأخيلة ما شاء لهم عصرهم الجديد أن
يتصرفوا في طلاقة واستجابة للحياة .

ولعل أعجب ما راعى من شخصية « خليل مردم » أنه كانت
تتزوج فيه نزعتان : الأولى هدوء الطبع وسماحة النفس ، والأخرى
صلابة الإرادة وقوة الإصرار .

حين نقرأ له شعره ، تنعكس لأنظارنا هاتان النزعتان ، هناك
رقة وصفاء ، إذ يصف مباهج الطبيعة ، ويجلو خواطره فيما تراه
العيون وما يتخالج في النفوس . وهناك تأجج واضطرام حين
يتغنى بالأمجاد القومية ، ويحيي بطولة الجهاد والفداء . هو في نزعته
الأولى هزاز يشدو فيشيع في القلب طرباً ، ويمأ الدنيا حوله
بالحان الحب والسلام ، وهو في نزعته الأخرى أسد يزأر فتدوب
في حرارة زثيره القيود والقضبان ، وتحس الدنيا وقد انقلبت
حرباً على الاستعباد والاستبداد .

كان « خليل مردم » شاعراً حاد الإحساس ، مرهف العاطفة ،
مفتوناً بالجمال . يتصباه بالجمال إذا رآه ، ويتصباه إذا استشعره ،
ويتصباه إذا قرأ تعبيراً عنه . وكأنما كان يزوهه الجمال ألا تراه
(١٠)

عيون الناس جميعاً . سواء أكان الجمال في شعر يقرؤه ، أم لوح من ألواح الطبيعة يراه ، أم معنى من معاني المجتمع يدركه . فينقل إليك في الدواوين التي نشرها ما أعجبه من شعر جميل لغيره من الشعراء ، وهو ينقل إليك في شعره صوراً جميلة من الحياة ، وكأنه ينشر لك ما أعجبه من شعر الطبيعة والوجود .

لقد أخلص نفسه لجمال البيان في كل عصر ومصر ، وشغلته مفاتيحه في نثر وشعر . فعنى بدراسة طائفة من أعلام البلاغة في الأدب العربي ، وأرصد الموفور من وقته وجهده لنشر دواوين جملة من الشعراء ، وكتب اسمه خادماً لهذه الدواوين ، يحلو عنها غبار الزمن ، ويقدمها متاعاً أدبياً للقارئ . لقد ذكر هؤلاء الشعراء ، ولكنه نسي نفسه وهو الشاعر المطبوع ، والفنان الموهوب ، فهو قد بر بشعراء الجمال الفني على اختلاف الأمصار والأعصار ، وأنساه البر بدواوينهم أن يبر ديوانه ، فتركه غير منشور ، تركه للتاريخ ، تركه أمانة لغده ، وفرغ هو لأمانة الشعر يؤديها لمن سبقه من الشعراء ، فاستوجب على من بعده من المعاصرين أن يردوا له الجميل .

ما سعت إلى هذه القاعة ، للتعريف « بتحليل مردم ، فإن الجو الذي يحيط بي فيها يعرف من أمره فوق ما أعرف . ولو أتيح للكائنات

من حولي أن تنطق لأحمتني على هذه المنصة : أندى صوتا .
وأفصح منطقا ، وأبلغ بيانا .

إنما جئت هنا لأحمل من ذوب روجي ، ومن أعماق قلبي ،
تحية خشوع وولاء وإجلال لذكرى فقيد كريم ، ودّع حياتنا
العاجلة ، تاركا لنا أغلى ما يتركه الراحل للمقيم في هذه الحياة :
لمسات شاعرية رفيعة ، فيمها للإنسانية المعذبة جوهر نفيس من
السلوة والعزاء .

محمود طاهر لاشين

يحكى أن ...

منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، كانت أندية القاهرة ، تعرف طبقة
من ناشئة ذلك العهد ، لا تفتأ تلجج بأهداف تلوح لها كأنها أطياف
وأشباح وظلال ...

وكانت أهداف هذه الطبقة تتركز في أن النفسية المصرية في
المجتمع الجديد لم تعد تستسيغ الألوان التي بدا بها الأدب في تلك
الأيام ، فهي تستشرف لأدب حسي ، وتعبير جديد ، تختلج فيه
ما تنطوى عليه القومية المصرية من عزيمة وتحمس وطماح .

لم تسكن هذه الناشئة الحديثة تملك في ذلك الوقت إلا تلك
الشعلة المقدسة التي تتوهج بين الجوانح ، فتبعث فيها ضوء الإيمان ،
وحرارة الاعتقاد ، وتثير فيها روح الحمية والإقدام ...

ويحكى أنه ... كان من بين تلك الرفقة المتطلعة شاب مرح
المجلس ، بسام الحما ، سريع النسكته ، ذكي النظرات ، اسمه : محمود

طاهر لاشين . وهو الذى عرف له القراء من بعد كتابه القصصى الطريف « يحكى أن ... » . وقد أثبت الأقدار منذ أيام إلا أن تختم هذا الكتاب بقصة تقليدية ، هى قصة المؤلف نفسه ، إذ يلقى على الدنيا تحية وداع ...

كان « طاهر » من بناء القصة المصرية الأوائل ، كتبها بوحى من موهبة أصيلة وتابع عمله فيها مثابرا دمويا يتسامى بفننه درجة بعد درجة ، فترك للأدب المصرى ذخيرة باقية تتمثل فى كتبه التى منها : « يحكى أن » ، و « سخرية الناي » ، و « النقاب الطائر » .

أخص ما عرفنا به أديبنا القصاص أنه برع فى تطويع قلبه لرسم الصور والمشاهد التى تجول فى خياله ، والتى كان ينسج خيوطها من قلب المجتمع المصرى وأوضاعه المتميزة ، فإذا قرأت له قصة تمثلت نماذج دقيقة من يبتئسا المصرية بشخصها وألوانها ذات وميض ورفيف ، والمؤلف مستخف وراءها لا تكاد تحس له تدخلا أو تطفلا يفسد عليك متعتك فى تذوقك لهذا الأدب القصصى الفنى ...

لقد صرفته شواغل الحياة عن مواصلة التأليف ، حقبة من الدهر ، فأخلى مكانه باختياره ، والأدباء يتفقدونه فيه ، ويتساءلون

مبسوط القامة ، مرفوع الهامة ، يلقي قصيدة رنانة في تنغيم وترنيم ،
والأذان مصغية إليه في شغف ، فوقفت بين الجمع أستمع ، وأعجبت
بالشاعر المنشد ، وما إن انتهى الإلقاء ، حتى صفقنا كلنا طربا ،
وسألت :

من الرجل ؟

فعلبت أنه د محمد السباعي ، أستاذ الترجمة في المدرسة .

لقد راعني من الأستاذ يومئذ إقبال الطلاب عليه ، وتوددهم
إليه ، رافعين الكفاة ، مطرحين الهيمية ، كأنهم إخوة صغار بين
يدى أخ كبير ، يناقلونه المداعبات ، ويبادلونه الأفاكيه ، حتى إنهم
كانوا إذا أطلق نكتة تصايحوا به :

أعد . . . أعد . . .

كشأنهم معه حين يستعيدون منه لإنشاد أبيات من الشعر .

كانت وقفته . والطلبة حواليه ، ترسم صورة واضحة لشخصية
د محمد السباعي ، الأديب : رجل بجراح مراح ، أريحى النفس رضى ،
الروح ، في طبعه سماحة أصيلة ، وفي شمائله طرافة جذابة ، لا تكاد
تجالسه وتتحدث إليه ، حتى تداعجه وتأنس بحديثه ، وإذا أنت تحس
أنه قد أصبح لك صديقا حبيبا .

ولبثت أتبعه بعد ذلك ، في مجلة « البيان » وفي صحيفة « البلاغ » ،

وأختها «البلاغ الأسبوعي»، وفي غيرها من الصحف والمجلات، وفيما أخرج هو من المطبوعات، كاتباً يديج فصولاً في الأدب والاجتماع، ومترجماً ينقل عن اللغة الإنجليزية من روائع الأدب الشرقي «رباعيات الخيام»، ومن بدائع الفن القصصى شكولا وأفانين للقصص الفرنسي «موباسان»، والقصص الروسي «تشيخوف»، وأضرابهما من مشاهير الكتاب.

و «السباعى» أديب له منهجه فى الترجمة، وطأ به فى التعبير، وإن شخصيته لتتوضح فيما نقل من الشعر ومن النثر على سواء. فانت حين تقرأ له ترجمة «الرباعيات» نظماً تحس بأن معانى «الخيام» وأخيلته وأفكاره لم تجد من قلم «السباعى» مجرد «ساعى بريد» بين المرسل والمرسل إليه، ولكنها صادفت شاعرآ يتفهم روحها، ويهيم فى جوها ويحرص على أن يعبر عما تفهمه واستشعره فى أناشيد متينة النسيج، ألفاظها منتقاة، وقوافيها محكمة، لا أساس عنانها إلا لأديب مكين، وشاعر رصين.

ولعل «السباعى» فيما صنع كان يحذو حذو «فتنجرالد» فى نقله «الرباعيات» إلى الإنجليزية، كلاهما استوحاها وتلفاً ظلها، وكلاهما أطلق لشاعريته حرية الإفصاح عن مراميهما، وكلاهما قدم للغته بذلك طرفة من الأدب الوجدانى الروحى، فيها للنفوس بهجة، وللأذواق متاع.

في ترجمتهم بنقل دلالات الألفاظ والجل نقلا مجرداً لآحياء فيه ، وفي حسابهم أنهم التزموا الأمانة والدقة ، فأراني أرثي للقارئ العربي إذ يعنى نفسه بقراءة قصة من هذه القصص ، فسيخرج منها ولم ينتقل إلى فكره سرها السكين ، ولم ينفذ إلى قلبه سحرها الخلاب ، بل أراني أرثي للمؤلف التاعس الحظ الذي وقع عمله في برائن ترجمة لم تحسن تأدية المعنى ، ولم تستطع نقل الروح .

ويجب أن يذكر « السباعي » ومن عاصره من أعلام مترجمي الأدب الغربي أنهم أصحاب الفضل في المحاولات المبكرة . لو وضع تقاليده تعبيرية في مجال الترجمة ، فلم تكن العربية يومئذ قد مرت على استخدام عبارات مستقرة تترجم بها نواظرها في اللغات الأجنبية لأداء المعاني الأدبية . ولقد كان « السباعي » طويل الباع في هذا المضمار ، فهو من الكتاب الفصحاء الذين قدروا على تطويع العربية لأداء مقتضيات التعبير في الأدب الحديث .

ولقد كان أديبنا « السباعي » غزير المعرفة ، واسع الاطلاع ، توافاً أن يزود القارئ بخير ما جنى له من الثمرات . ولعل صبغته التعليمية التي كانت له في مطلع حياته أستاذاً في معاهد الدرس ،

— ١٥٧ —

هي التي بعثته على أن يجمع في بعض مقالاته بين ما قرأ في الكتب والصحف ، وما اختزن في ذهنه من معارف ومعلومات وتوجيهات ، في مختلف مناحي الأدب والفكر والحياة والمجتمع.

زكى مبارك

منذ سبعة عشر عاما أو نحوها ، فى يوم صفا أديمه ، ورق
نسيمه ، كما يصف بعض البلغاء ، كنت متخذاً سمتى نحو المحكمة
لبعض أمرى ، وأنا مشغول بما يحول فى رأسى ، فإذا أنا بغتة أمام
رجل ذى قامة وافية ، تسكوه حلة ضافية ، وهو يخب فى سيره ،
محلول رباط الرقبة ، وقد تأبط رزمة حافلة بالصحف والكتب
والأوراق ، وعلى بياض طلاقة وبشر ، وفوق رأسه طربوش مستلق
إلى وراء ، يطل من حافته شعر جعد مهوش . وما أسرع أن أقبل
نحوى ، وضرب كتفى ، قائلا لى :

هل قرأت قصيدتى الغزلية فى «البلاغ» أمس؟

فلمت شتات فكري ، وأجبت :

وهل يفوتنى ذلك يا «دكتور»؟

— وما قولك فيما قرأت؟

— ١٥٩ —

— قصيدة غراء ، وفريضة عصماء ، كشأنك في كل ما تنظم...

— إنك تثني عليها إشفافاً على نفسك مني أيها الصديق .

— وماذا تريدني أن أفعل ؟

— قل الحق ، ولك الأمان ...

— اصدقني يا دكتور ، ... أنا لنزمت أنت الحق دائماً في كل.

ما تقول ؟ ..

— إنك تعلم ، وغيرك يعلم ، أن «الدكاترة» زكي مبارك. أجرأ

خلق الله ، وأنه لا يخشى لومة لائم في قوله الحق ...

— وقولة الباطل ... أجرىء أنت في قولها أيضاً ؟

— ماذا تعني ؟

— أعني أنك ربما استطعت أن تعطى الباطل صبغة الحق ،

بفضل ما أوتيت من قوة حجة ، وتوقد قطنة ... هل تعوزك

المهارة واللباقة يا دكتور ؟ .

فتعالى بهمة ريفية بملجلة ، قال وهو يضرب يدي :

أنا كما ترى أن أكون ... حسبي ألا تنكر جرأتى وشجاعتي.

أيها الصديق . . وما أقرب الباطل من الحق ، وما أقرب الحق من

الباطل ، في بعض الأحيان ، حتى لكأنهما سيان !

فقلت له مبتسماً :

— ١٦٥ —

إن اعترافك هذا أكبر دليل على ما امتزت به من جرأة
وشجاعة .

فسكت سكتة قصيرة ، ثم صاح :

اسمع مني مصداق ما تقول ... ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة
«فلان» ، ذلك الذي قلت فيه : إنه قباني بلا ميزان ؟

فبادرت أقول :

هل جد في أمره جديد ؟

— ترجم عليه .

فغفرت في قائلا :

لم أعلم بالنبأ . متى ؟

— ذهبت روحه ، أو قل : ذهبت ريحه ، وأنا الذي قتلته
وكفنته ، وواريته الثرى .

ثم استل إضامة من الرزمة التي يحملها ، وبسطها في يده ، فإذا
هي تجربة لمقال عليها إصلاحات بالقلم ، وقال :

هذه شهادة وفاته ، ستظهر غدا على رأس موضوعات مقال :

«الحديث ذو شجون» .

فهممت قائلا :

إنا لله وإنا إليه راجعون . ولماذا لم تتركه يطول عمره قليلا
يا دكتور ، ؟ .

— ١٦١ —

— لقد طويته ونشرته ، وهكذا أراد لنفسه . إنه جحد حق ،
وتعرض لسخطي . على أني أكرمه بهذه الميثة الأدبية الرفيعة .
من يمت بسيف « زكي مبارك » ناله شرف عظيم . لقد كان شرفاً
« للنخوارزمي » أن يفحمة « الحمداني » ، أشد الإفحام ، ويقضى عليه
بالموت الزؤام .

— نعم . كان العراق بينهما شديداً ، فيما سجلته كتب الأدب
والتاريخ .

— أي كتب يا سيدي ؟ هل قرأت ما كتبته أنا في ذلك في
كتابي « النثر الفني » ؟ . أروع روائع الكتب التي تمخض عنها
القرن العشرون ؟

— كتابك الذي شهدت له جامعة « السوربون » ، وأنا لك
عليه إجازة « الدكتوراه » .

— ستهدم « السوربون » وغيرها من جامعات « فرنسا » بل
جامعات العالم أجمع حجراً حجراً ، ويبقى اسم « زكي مبارك » ،
وكتابه « النثر الفني » . لا تشك في ذلك أيها الصديق .

— وهل ظننت أني أشك يا « دكتور » . كل ما في الأمر أنك
ذهبت بكتابك ليطلع المستشرقون على ثمرات بحثك ودراسك ،
فيزدادوا معرفة بأدبنا العربي ، وإيماناً بعبقريته .

(١١)

— ١٦٢ —

— لقد كنت هنالك في « فرنسا » مهوى أفئدة الناس من مستشرقين وغير مستشرقين . من رجال ونساء . لانتس أيها الصديق أن الحسان الفواتن في « باريس » كن يتعشن فتي « سنتريس » !

— ولكنك يا « دكتور » لم تهو إلا « ليلي » المريضة في العراق . وباسمها أخرجت كتابك المعروف .

— إن لي في كل مكان « ليلي » مريضة بجي . ألهما أنس الحياة ، وتلممني روائع القريض .

وهنا لمح سيارة أجرة مارقة ، فتتهجى عنى عجولا ، وصاح يستوقفها ، فلما أطاعت جذب منها راكبها ، فنزل يصالحه ، وانخرط معه في حديث فياض تتناول أطرافه القصيدة الغزلية ، والمقال الذى ينبى وكيال الوزارة ، وهو حى يحكم ... وطالت بهما الوقفة ، وسائق سيارة الأجرة يعجب لما بينهما من إرخاء وشد ، وأخذ ورد ، وهو ضجر ملول يحار بالشكوى ، ولا يجد من سميع .

وفاتنى يومئذ أن أدرك موعد المحكمة ، ولكن ما كسبته من ذلك اللقاء الطريف بينى وبين « فتي سنتريس » كان فيه العوض ، فلم أشعر بضيق . وإن وقفة واحدة لك مع « زكى مبارك » خليقة . أن تظهرك على كل شيء فيه ، ما أعلن منه واستتر ، لقد كان ينفض

نفسه نفصا، ويكشف عن جلبيته كشفا ، فيركز لك خصائص شخصيته، ويقدمها في سهولة ويسر ، دون أن يرهقك في تعرف هذه الشخصية ، واستبطن أسرارها ، والتفطن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ .

يبدأ حديثه معك بنسكته أو نادرة ، وينقلك منها إلى تحقيق لغوى أو أدبي ، ولا بد أن ينطوى التحقيق على غمز ولمز يصيب به القريب أو البعيد ، وفيما هو كذلك يبتك لو اعج هيام بهذه أو تلك ، من يسمى أولا يسمى ، وإذا أنت فجأة معه في « سنتريس » يريك جهوده لإنهاض ذلك البلد الريفى الذى كان مسقط رأسه ، ويتخلل هذا كله أنباء مبارزة وطعان مع الأقران وغير الأقران على اختلاف الألوان .

إنه كشكول حى مبعثر ، بل مسرحية مختلطة ، فيها مشاهدتى ، من مأساة وملمأة ومهزلة . أو لسكانه برج بابل : ملقى النظائر والأضداد !

نشأ د زكى مبارك ، نشأة أزهريه ، تمكن فيها من العلوم العربية والإسلامية التى تميز بها « الأزهري » ، وأعلى الأصح انفراد بها كل الانفراد ، وقد ظلت هذه النشأة أساساً قوياً لحياة الرجل فيما بعد ، على الرغم من انتقاله إلى آفاق جديدة فى الدراسة والتعليم

وكان لنظام التعليم الأزهرى لذلك العهد محاسنه التى لا تتجحد ، كما كانت له معاييه التى أملاها روح العصر وطابعه .

وعلى رأس المحاسن أن نظام الدراسة فيه كثير من الحرية والانطلاق ، وفى ذلك ما يعين ذوى المواهب على أن يجتهدوا ما يستلزمه وما يتيح لها التآلق والسطوع . فالطالب غير ملزم بفصل معين ، وحصص تتوالى ، ومناهج مقررة ، وواجبات تفرض . ومعلمين يريدون الطلاب على ما يريدون ، وامتحانات تتعاقب على السنين ينتقل بها من مرحلة إلى مرحلة . ومن ثم يجد الطالب نفسه فى فسحة من وقته وتفكيره واختياره ، لا سلطان لأحد عليه فى ذلك كله ، فهو وشأنه فى العالوم التى يؤثر أن يدرسها ، والمعلمين الذين يطيب له أن يتلقى عنهم ، والمرحلة التى يرى نفسه أهلا للانتقال إليها . وكان من أثر هذا أن استوثقت الصلة بين الطالب والمعلم : يجلس إليه فى حلقة درسه ، ويزوره فى بيته ، ويصاحبه فى غدوه ورواحه ، ويتخذة رائدا وأبا روحيا له ، ولا تكاد تنفصم هذه الصلة على طول المدى ، وإن بلغ الفتيان سن الأشياخ ، وقعدوا معهم مقاعد الدرس والتلقين .

على أن الأزهر فى هذه الحرية والانطلاق كان مضروبا عليه نطاق ، فهو فى داخل إطار ، وخلف أسوار : إطار مؤلفات متعارفة ،

لا مزيد عليها ، وأسوار مبادئ مسلمة لا تشكيك فيها . فإن ساغ النقاش في المسائل ، والجدل في الفروع ، فما يسوغ ذلك بحال من الأحوال في أسس وقواعد تنزل منزلة العقائد ، فهي حرية في التفاصيل ، ولكنها تنطوي على تقديس للأصول .

ومع ذلك استطاع هذا النظام الدراسي الأزهرى أن يخرج أفذاذا في الفكر والرأى ، ازدهرت بهم نهضة العلم والأدب ، وفي ظلها نضجت شخصية أولئك الدكاترة ، الذين كان يجمعهم في إهابه « زكى مبارك » .

في مقالاته وأحاديثه تجلت نفحات الحرية والانطلاق ، كما برزت خاصة الاستطراد التي شاعت في السكتب الأزهرية ذات الشروح والحواشى والتساير ، فهي تتطرق من موضوع إلى موضوع ، وتنتقل بين أشقات من النواحي والجهات ، على طريقة «الشيء بالشيء يذكر» ، أو - كما كان يسمى «زكى مبارك» مقالاته - : « الحديث ذو شجون » .

وفي تلك المقالات والأحاديث من الروح الأزهرية صلاة في الازدياد عن اللغة العربية والأدب العربى والمقومات الإسلامية ، فهو أديب عربى قح ، ومفكر عربى محض ، تملكه الإيمان بالعربية والغيرة على العروبة ، على الرغم من تحليقه في آفاق أخرى

من الثقافة والتفكير .

تعلم الفرنسية في صدر شبابه ، متطلعا إلى المزيد من الثقافة الأجنبية التي لاجال لها في «الأزهر» ، ولا ريب أن مسلك أستاذه الدكتور وطه حسين ، قبله على هذا النحو قد أثر فيه أعمق التأثير ، حتى أوحى إليه كذلك الخروج من «الأزهر» إلى «الجامعة المصرية» في عهد —ها غير الرسمي ، فمضى في الطريق نفسه ، ونال إجازة «الدكتوراه» من تلك الجامعة الفتية ، ثم قصد من بعد إلى فرنسا ، ولبت يكافح حتى ظفر منها أيضا بإجازة «الدكتوراه» الجامعية .

ولعل «زكي مبارك» يبين الذين انصرفوا إلى اللغات الأجنبية ودراساتها في أنه لم يطلب بها علما ولا أدبا ، وإن اكتسب ما تيسر له من مناهج البحث وطرائق الدرس ، فكأنما كان مبعوثا إلى «فرنسا» لأداء مهمة ، والاضطلاع بخدمة ، هي التعبير عن اعتزازه بأدب العروبة وحضارتها ، وإقناع المستشرقين بطول الباع ، والقدرة على التخريج والإبداع .

لم يكن الرجل كغيره من أصحاب الدراسات والإجازات الأجنبية ، ينقلون عما درسوا في علم أو أدب أو تاريخ ، أو يحاكونه فيما ينشئون من بحث أو قصة أو شعر . وعلى الرغم من فرنسيته

اللغوية لم تظهر عليه مسحة أجنبية في النمط الفكري أو الأسلوب
الكتابي ، بل عهدناه عرييا صميما ، لا تخلو كتاباته من عنجية
أنيسة ، ولوثة أعراية محببة ، بل لقد يفلت قلبه أحيانا حتى يبلغ
حد التطرف والجحاح .

ولقد مضى « زكي مبارك » عن إنتاج أدبي ضخم ، فسيح
الرحاب ، كثير الشعاب ، فن بحث وتحقيق وموازنة بين آثار
الأدباء المحدثين والقدامى ، إلى شعر ينظمه للتسرية عن النفس
والإبانة عن حيوية العاطفة ، ومن أمشاج من الخواطر والأسمار
والتعليقات على الغاديات الرانحات من الششون والأحداث ،
إلى مشاجرات قلبية لا يمل فيها أن يصادول معاصريه ما وجد إلى
الصيال سييلا .

والبحوث التي توفر عليها « زكي مبارك » متوج أهمها بشهادة
الأعلام الجامعيين في « مصر » وفي « فرنسا » ، أولئك الذين أناله
اعترافهم أعلى الإجازات الجامعة قدرا ، ومهما يكن من أمرها
فليس ريب في أنها كانت بواكير موفقة لحركة التجديد في الأدب
العربي ، ورفع مستوى البحث فيه إلى تلك المستويات التي ارتفعت
إليها طرائق البحث والنقد في الآداب العالمية العصرية ، وإنما
تزداد من الناحية التاريخية قيمة بأنها كانت بدء انطلاق ، ومطلع

آفاق ، ثم هي من الناحية العلمية حصاد جهد دائب ، وسهر موصول ،
لم يدخر فيه صاحبه وسعا في الاطلاع والتنقيب والتحصيل .

وشعر « زكى مبارك » يتميز باثنتين : فصاحة ، ودماثة . فهو
لين اللفظ والأسلوب ، متين النسج والقافية . وفي معانيه العاطفية
طراوة وعذوبة ، وليس يعوزه الطابع الموسيقي على الإيقاع العربي
المتوارث . وكان هو يعتز بهذه الصفات فيما ينظم ، ويجدها حقيقة
بأن تجعل منه أشعر الشعراء ، يشهد بذلك لنفسه ، وكفى به
شهيدا .

وأحاديث « زكى مبارك » تكشف عن موهبة فيه ، هي موهبة
المسامرة والمناقلة ، في هذه الأحاديث تشف روح طبيعية برئت
من التكلف والتزويق ، فهي صورة صادقة لما ينطبع في وجدان
الرجل من مشاهد وذاكرات ، ومن خواطر وتأثيرات وهو
يرسلها غفو القلم ، وفيض البديهة ، لا تروية فيها ولا تدبير ؛ ولكنه
ينبرى للحديث فيوائيه سيل منهمر ، تتداعى فيه المناسبات
والذاكرات والمعلومات والخطوات في تشابك واشتجار ، ولكنها
متآلفة مع ذلك بقوة الروح ، ووحدة المناداة ، ولطف الوصل
بين البعيد والقريب ، فأنت متنقل في حديثه الذي تقرؤه له بين
فقدات ومعاينات ونوادير ، في غصونها استدراك فلسفي ،

أو استطراد عاطفي ، أو تعليق نحوي ، أو شكوى شخصية . وكأنك تستمع إلى مذياع يتنقل مفتاحه من تلقاء نفسه بين محطات الإرسال . في شرق وغرب ...

وقلما يخلو سمر من أسماره من لجة تتناول الجمال وافتتانه به . ولم يكن ذلك عجباً من صاحب دماغ العشاق ، دوليل المريض . في العراق ، ولكن العجب أن تدب في حديثه افتتان الجال به . ووقوع الحسان في شباك ، وإنه ليوغل في هذا إيغال من يقف من خصومه أو عواذله في هذه القضية موقف التحدي ورد الافتراء . ونقض الادعاء .

وأما مشاجراته القلبية فقد كان فيها مطواعا لفطرتة ، منساقاً مع الشيمة البدوية أو الريفية في إثارة الصراحة العارية . فهو إما رأى شيئاً ينكره ، انبرى ينقده ويشهر به ، غير آبه بما تواضع عليه الناس من السكياسة والحصافة والتزمت وتجنب الاحتكاك . والهجوم . وما كان « ذكي مبارك » ، يؤمن بتلك الطراوة العصرية في محاسنة الناس بعضهم لبعض ، ولكنه كان عارم الرغبة في البوح . يمكنون وجدانه ، دون محاباة أو مواربة . ومن ثم يكتسب حديثه طابع الخشونة والجفوة والافتحام ، وقد أفاد الرجل من ذلك أنه أراح ضميره ، بيد أنه أحاط نفسه بضروب من العداوات والمناوآت .

وإن لم يأبه لها ، إذ بسط كل ما يحوك في صدره ، ونفض عنه ما يثقله ،
فصفا قلبه ، وسلبت طويته ، وسهل عليه أن يصافح في يومه من
هاجمه في أمسه ، صادقا في مودته ، كما كان صادقا في خصومته .

ولا يعوز القارىء أن يلتبس صفاء نفس « زكى مبارك » فى
كثير مما كتب ، إذ يصادف فى تعليقاته تحية لرجل كانت بينهما
علاقة فى درس أو مجلس ، وذكرى لراحل كان له أستاذا أو كانت
بينهما مشاركة فى عمل ، وما يشبه الترضى والإعتاب لرجل هاجمه
من قبل أعنف هجوم ، معترفا بحمىل له عليه أو معجبا برأى أبداه
ومن آيات وفائه واعتزازه بمشخصاته أنه كان لا يفتأ يذكر
« سنتريس » مسقط رأسه ، حتى أصبح اسمها مذكورا كأنها كبرى
العواصم لا إحدى القرى ؛ فنافست فى أدبنا العصرية معاهد العصر
الجاهلى من نحو « سقط اللوى » و « الدخول » و « حومل » فى شعر
« امرئ القيس » !

ولعل أصدق وصف « زكى مبارك » أنه طفل كبير ، احتفظ
بما للطفولة من سرعة النسيان للإساءة ، وترك الاحتمال للحقد ،
وخلوص الضمير من كوامن الضغن ؛ فإنك لترى الطفل غضوبا
على رفيقه فى شىء من الأشياء ، ولا تلبث أن تراه ملاعبا له .
ناسيا ما كان بينهما من مغاضبة وشحناء ، بل لعل ذلك كان منه
سبيلا إلى توطيد صداقة ، وتمكين إخاء !

— ١٧١ —

سلام على زكى مبارك ، . . .

كان مثلاً للجسد والدأب فى التكوين والتحصيل ، وكان شعلة
أنشاط فى التأليف والتدريج ، وكان شخصية بارزة فى مجتمعنا
الأدبى ، أحس وجودها من هولها ومن هو عليها . والرجل العظيم
لا تخلو حياته من صديق وخصم !

الاهتمام بالدراسات العلمية البحتة والمباحث الاجتماعية العميقة مما لا ترحب به الصحف إلا في الندرة ، وكان الناشر من أشد من الصحف عزوفاً عن تلك النواحي ، وأكثر ميلاً إلى التأليف الذي يحقق غرض التسلية والترفيه ، فلم يجد بداً من أن يسخر ماله لأداء رسالته ، فما كان الفقيه بالكاتب الذي ينشد التسكيب بقلمه ، ولا كان ممن يبتغون الشهرة وبعد الصيت بين جمهور من القراء يتخذون القراءة طهراً وتزجية وقت فراغ . وإذا نحن نرى « إسماعيل مظهر » ينشئ مطبعة ودار نشر ، عنهما تصدر مجلة « العصور » الشهرية وأختها الأسبوعية ، وعنهما تخرج الكتب والمؤلفات لصاحب « العصور » ولغيره من الأدباء والعلماء . وتجلى طابع المجلة ودار نشرها واضحاً بين سائر المجلات ودور النشر ، فقد ظهرت « العصور » تؤازر مجلة « المقتطف » في الحرص على تزويد القارئ بأحدث المعارف الإنسانية ، وبأعمق المباحث في ميادين العلم والأدب والاجتماع ، وتميزت بالحرية والطلاقة في تقديم الجديد من الآراء والأفكار والنظريات ولم تكن الكتب التي نشرتها « دار العصور » لتجد طريقها إلى الجمهور ميسوراً في دور نشر تزن ما تصدره بميزان الربح والرواج . وهكذا ترفعت مجلة « العصور » أن تكون مورد كسب كما ترفعت دارها للنشر أن تكون بضاعة للتجار ،

ولإذا كان صاحبهما قد فقد فيهما الكثير من حرما له ، فلا ريب في أنه أدى بهما رسالة فكرية رفيعة ، ولا ريب في أنه أسدى بهما مآثرة يذكرها له تاريخ الصحافة والثقافة بالفخر والإعزاز .

تعددت الآفاق التي ارتادها « إسماعيل مظهر » بقلبه وفكره . ودرأسه وجهده ، فهو في محيط العلم ناقل « أصل الأنواع » ، لداروين ، وهو في حقل الأدب مترجم بعض لوامع « طاغور » ، وهو في ميدان الاجتماع صاحب البحوث المبكرة في المذهب الاشتراكي ، وهو في مضمار اللغة السابق إلى التأليف المعجمي في اللغتين الإنجليزية والعربية تأليفاً يقر أسساً وطيدة للمصطلح العلمي تسد حاجة الدارس والمعلم والمترجم .

وإن هذه النواحي التي تنازعت فقيدا العظيم ، وجعلت منه رجلا متنوع الجهد ، متشعب السعي ، لتكشف فيه عن إدراكه لجسامة التبعات التي ألقيت على عاتق رواد النهضة في مطلعها القريب ، واضطلاعه من هذه التبعات بنصيب موفور . فقد فتح عينيه فإذا العالم الأوربي يزخر بأوضاع طريفة في الحضارة ، وفنون جديدة من المعرفة ، وعلم قائم على تطبيق وتجربة ، ومبادئ اجتماعية تتصارع ، وألوان من الأدب لتسود ، والثقافة في بلاد العروبة يومئذ سطحية ، والدراسات الجامعية وليدة ، فأراد أن

يعد النهضة العربية بمقوماتها ، واقتضاه ذلك أن يتعهد بجهوده
مجالات متعددة في العلم واللغة والأدب والاجتماع على السواء .

* * *

كان الأستاذ د إسماعيل مظهر ، في كل ميدان طرقة من تلك
الميادين على تنوعها وتشعبها فضل مذكور ، وأثر بارز ، ولكن
فضله الأكبر الذي يطبع شخصيته في عصرنا الحديث ، وأثره الباقي
الذي تمتاز به جهوده الثقافية في لغتنا العربية الحاضرة ، يتجلى
في أنه كان من تلك الزمرة التي عملت في مطلع النهضة على أن
ترتفع بمستوى التفكير والتعبير إلى المنهج العلمي السليم ، إذ كانت
أغراض الكتابة والبحث في جملتها تدور في مدارات ضيقة سطحية
تتفشى فيها الخرافات والأوهام والأفكار التي عفى عليها الدهر ،
ولا تكاد تتجاوز مخاطبة العواطف والتعلق بأذيال الأخيلة ، دون
تعمق في واقع الحياة ، وتناول للمسائل والمشكلات ذات التأثير
البعيد في المجتمع ، وتغلغل إلى الحقائق التي كشفت عنها حضارة
العصر . فكان جهد الأستاذ د إسماعيل مظهر ، ومن إليه من زمرة
المفكرين العصريين فيما كتبوا وفيما ترجموا أن يجعلوا الكتابة
موضوعية بحتة ، والبحث قائماً على الاستقراء والتحليل والاستنتاج ،
في غزارة مادة ، وقوة تفكير ، ودقة تأمل ، ونفوذ إلى الصميم .

وعندى أن ترجمته لكتاب «أصل الأنواع» لداروين ، تشبه
 في الدافع إليها ترجمة « لطفى السيد » لكتب أرسطو ، وقد ظهر
 « أصل الأنواع » قريبا من الوقت الذى ظهر فيه كتاب « علم
 الأخلاق » . أراد « مظهر » أن ينقل أصلا من الأصول العلمية
 الحديثة يوضح مذهب التطور ، كما أراد « لطفى السيد » أن ينقل
 أصلا من الأصول الفلسفية القديمة التى توضح مذهب «أرسطو» ،
 وكان ذلك منهما دليل الإيمان بأن نقل الأصول فى العلم والفلسفة
 إلى اللغة العربية هو أكثر السبل عونا على صحة الفهم، والتعرف إلى
 الحقيقة ، وأهدى الطرق إلى توطيد أسس التفكير .

وكما كان الأستاذ «إسماعيل مظهر» حريصاً على أن يقرب إلى
 قراء العربية زاد المعرفة الأوربية الحديثة ، كان على مثل ذلك
 الحرص فى وصل الحياة العلمية المتطورة بالجذور العربية المكيئة
 فى العلم والمنطق والفلسفة ، ولطالما عرفنا بالسابقين الأولين من
 أساطين العرب ، أولئك الذين أضاع بهم تاريخ العلم والمعرفة
 حقبة من الزمان .

ليس فى مقدور كلمات تلقى فى دقائق معدودات أن تجزىء فى
 تقدير عالم باحث أمضى نصف قرن دهباً على الكتابة والتأليف .
 (١٢)

— ١٧٨ —

ولو كان الوقت بملكي لما استطعت أن أوفيه حقه كله ، فإن الأستاذ
دإسماعيل مظهر ، في كل ميدان من الميادين التي ارتادها وزنا واعتباراً
يحتاج الحديث فيه إلى أهل الاختصاص .

وحسبي من كلمتي هذه أني أتجه بها تحية لروحه في ملتها الأعلى ،
ولكباراً لذكراه التي تسرى في حياتنا العلمية والأدبية
والاجتماعية مسرى النسمة العطرة ، تملأ النفس من رضا وارتياح .

صديق شيوب

في سطور قلائل ، صباح يوم الجمعة ٢٣/٤/١٩٦٥ نعت الصحافة شيخاً من شيوخها الأجلاء ، هو الأستاذ صديق شيوب .

كانت «الإسكندرية» مقامه ، فيها لمع اسمه ، وبرزت شخصيته ، فلم تكن تخلو منه ندوة من ندواتها جليسياً أليساً ، أو محاضراً بارعاً ، أو مشاركاً في مسعى من المساعي التي تستهدف خدمة الثقافة والمجتمع .

وإذا كان العمل الصحفي قد فرض على الأستاذ صديق شيوب «فرضاً» ، باعتباره مورد رزق ، فقد كانت الصحافة كذلك متنفساً له يعبر به عن ولوعه بالأدب ، ويعرض ما له من أثر فيه .

لم يكن أدبه وليد عاطفة جياشة وقريحة وقادة فحسب ، ولكنه كان مع هذه وتلك يستمد أصالته وقوته من ثقافة عالمية واسعة الأطراف ، والمقام شامل بما يجد من تيارات فكرية شتى .

ألزم نفسه ، زهاء ثلث قرن ، أن ينقد الكتب في مقال أسبوعي

يتصدر الجريدة السكندرية التي يعمل فيها ، وما كان في نقده
يجتزم بتصيد ملاحظات غابرة يتناول بها الكتاب المنقود ، بل
كان يتخذ من الموضوع سبيلا إلى بسط رأى أو جلاء فكرة أو
مناقشة قضية يجد فيها القارىء فائدة ومنتعة يزدوجان فى آن .

وربما رأيت في نقده مؤيداً أو معارضاً ، بيد أنه لا يحتد في
معارضة ولا يشتد في تأييد . طابعه الاعتدال ، ورائده الصراحة ،
وقوام النقد عنده عفة القلم .

وما أحسبه كان ينبغي بما يكتب شهرة وبعد صيت ، وإلما
حبس مقالاته النقدية تلك في صحيفة « البصير » ، وهي صحيفة محلية
محدودة ، ميدانها الشؤون المالية والتجارية ، وذيوها مقصور على
مدينة الإسكندرية ، ومع ذلك فإن مقالاته كانت تصل إلى الخاصة
من أهل الفسك والأدب ، وتنزل عندهم منازل التقدير والإكبار .
وقد عرفنا الأستاذ « صديق شيدوب » إقباله على القصة تأليفاً
وترجمة . . وأنت في قصصه المؤلفة تلمح لقطات بارعة من البيئة
حواليه ، وصوراً لطيفة لشخصيات تنتفض حيوية ، وتجده يعالج
مضامين القصص وأحداثها معالجة سووية هادئة غير متكلفة . أما
ترجماتة فهي مختارات موفقة من أدب اللغة الفرنسية ، وكان
يحسنها أيما إحسان . ولذلك انسمت ترجماته بالدقة ، مع سلاسة
لفظ ، وجمال عبارة ، وقوة أداء .

لذكراه العطرة تحية وسلام . .

محمد مندور

عزيز علينا أن نذكر الأستاذ الدكتور « محمد مندور » ،
انتماء في حسرة وتفجع .

فقدناه في الشهر الماضي ، أكثر ما كنا نرجاه فيه ، وحفاؤه به .
فقد دعونا إلى المشاركة في عدد خاص من مجلة « القصة » ، هو عدد
الطلائع ، لينقد ما تيسر له قراءته من القصص ، فرحب واستجاب ،
وكان الأمل أن يكون ذلك فاتحة اتصال أوثق ، ومشاركة
أبعد مدى .

ولكن للأقدار سخرية بما يفكر فيه المفكرون وما يريدون ،
وكان من سخريتها بنا ، أن تحملنا صاغرين على أن نكتب اليوم
هذه السطور في تحية الراحل المأسوف عليه ، نقدم بها نقده الذي
كتبه إلى المجلة ، آخر ما كتب إليها ، أو بالأحرى أوله وآخره معا .

مندوب قرن أو يزيد ، ظهر في الناس كتاب اسمه « نماذج
بشرية » ، لكتابه « محمد مندور » ، وأشهد أني لم أكّد أمضى في

قراءة بعض فصوله حتى تبين لي أني بإزاء كتاب فذ لكاتب فذ ،
وأنه قد ولد في العربية مؤلف في النقد ليس لها بمثله عهد ، فهو في
منهجه وفي مضمونه وفي صياغته يدل على بصير بالفكر الحديث في
أرقى مستوياته ، ووقوف على روائع الأدب عامة والأدب القصصي
خاصة ، ومهارة فائقة في التركيز والاستخلاص والتوجيه .

ويومئذ أيقنت بأن سيكون هذا الكتاب بمثابة تربية نقدية
لناشئة الأدب وشهادته ، وتذكرة نافعة للأدباء الرواد
وطلائع النقاد .

وعرفت أن الدكتور محمد مندور ، تلقى ثقافته الأدبية الرفيعة
من أصفى الينابيع في الغرب ، وأهل نفسه هنا لك بدراسات
عميقة في ألوان من العلوم الإنسانية والمعارف السكونية ، ورجع
إلى وطنه أستاذًا جامعيًا يبني أجيالنا الصاعدة على أسس وطيدة .
وما لبثنا أن رأيناه يترك مقعده من الجامعة ، وكأنه ضاق به ،
ويخرج إلى الآفاق الفساح ، يكتب في الصحف اليومية تعليقا على
شئون الحياة وشواغل المجتمع ، ويتناول في المجلات الدورية
موضوعات حول النقد الأدبي متنوعة ، ويحاضر في المعاهد الفنية
وغير الفنية ، ويلقي أحاديثه في الإذاعة مرئية ومسموعة ،
ويسهم في ندواتها بالرأى والمناقشة ، وهو فيما بين ذلك كله يؤلف

— ١٨٣ —

أو يترجم ماضى العزم ، تاشط القلم .

ولعل أكبر ما يميز الدكتور مندور أنه جرى في النقد أول ما جرى على ما درس من مناهج وأصول اتباعية مقررّة ، بيد أنه لم يتعصب لها ، ولم يقف عندها ، بل سائر الجديد في عالم الفكر ، وتابع التطور في مذاهب الأدب ، ولم يضرب صفحا عن المستحدث من أساليب النقد ، وإذا هو يتمثله ويزنه أدق وزن ، ويخرج منه ناقدا أصيلا ، بعيد أفق النظر ، مصقول الذوق ، عادل التقدير ، مكتسبا من السباحة والمرونة ما يعصمه من التعسف ، وينأى به عن الجحود .

وإذا كان الدكتور « محمد مندور » قد ودعنا اليوم ذلك الوداع المحتم ، فقد خلف لنا بآثاره نموذجاً من النماذج الإنسانية الممتازة . . نموذج أديب ناقد ، آمن برسائلته فأداها في أمانة ، وذهب راضيا مرضيا ، عليه صلوات من الله ورحمة .

أَمِينُ الْخَوْلَى

يعد الأستاذ أمين الخولى من أنضج ثمرات النهضة العلمية والأدبية التي اتسم بها القرن العشرون في الشرق . إذ تجلت في شخصيته أروع خصائص تلك النهضة من الثورة على التخلف والجمود ، والتطلع إلى آفاق نيرة في الثقافة والفكر ، والاتصال الوثيق بأقوم ما تمخض عنه العصر الحديث — على المستوى العالمى — من نظريات واتجاهات .

وقد أفاد من تخرجه فى الأزهر وفى القضاء الشرعى أصالة فى دراسة جوانب الحضارة الإسلامية والعربية وثقافتها ، تاريخها وفقها وأدبا ولغة . وكان لذلك أبعاد الأثر فى حياته العقلية ، خلال مراحل جهاده الثقافى والفكرى فى البحث والتأليف والتدريس الجامعى .

ولم يكن نشاطه مقصورا على هذا كله ، مع تعدد نواحيه ، ولكنه زاد على ذلك أنه كان له من أساليب الدعوة والتوجيه

ما أنشأ به مدرسة فكرية التف حولها شباب الجامعة — جيلا
بعد جيل — يقتبسون منه نظراته الموجهة ، وآراءه الثاقبة ، في
تطوير قواعد اللغة ، وتجديد مذاهب الأدب ، وإحياء وسالة
الدين ، ويتخذونه مثلاً كاملاً في إعلاء حرية الفكر وإذكاء
روح التقدم .

وقد ترك في اللغة والأدب والشريعة والفلسفة والأخلاق
كتباً ورسائل ومباحث تربي على الثلاثين ، تغلغل الانتفاع بها
في أرجاء الوطن العربي الشامل ، ومنها ما عرض في المحافل
والمؤتمرات العلمية في البلاد الأجنبية وترجم إلى لغاتها .

مراد كامل

الدكتور مراد كامل أستاذ جامعي مكين ، وعضو في مجمع اللغة العربية له فيه أثر واضح، وكذلك في المجمع العلمي المصري ، وغيره من الهيئات العلمية . وهو عالم تخصص في دراسة اللغات ، وبخاصة اللغات الشرقية ، وقد نال دكتوراه الأستاذية من جامعة توبنجن بألمانيا في صدر شبابه . ومنذ استكمل تعليمه لم يفتر له جهد في البحث والتأليف ، ولا نشاط في التدريس والتوجيه ، وأنه مع ذلك دءوب على الأعمال الإنشائية ، أحيا إلى جانب أستاذه الجامعة مدرسة الألسن لتنشيط حركة الترجمة ، وعمل على إدخال اللغة العربية في مدارس أثيوبيا ، ووضع لذلك كتابين في القواعد والمطالعة . وله مشروع لجعل اللغة العربية لغة عالمية . أما بحوثه في الآداب العربية وتاريخها وفي فقه اللغة العربية وفقه اللغات عامة ، فقد جاوزت الخمسين ، وهي على تعدد ألوانها ، وتنوع اتجاهاتها ، تمتاز بأصالة درس ، وعمق بحث ، وسعة أفق . وذلك إلى امتيازها بالحوية وقوة ارتباط موضوعاتها بمطالب النهوض

— ١٨٧ —

العصرى ، مع صدق الرغبة فى الإفادة والتبصير . وبهذا يسمو
الدكتور مراد كامل إلى طبقة العلماء الذين يتجهون بمجهودهم وجهة
عملية إيجابية فى جد وصمت وإخلاص ، لإمداد الحركة العلمية بما
يريدها من غنى ونماء .

دور الأدب في المجتمع

الأدب في أبسط تعريف له هو التعبير عن الحياة ، وما الحياة إلا انعكاس النظم والأوضاع على الأحياء في سلوكهم الاجتماعي ، فإذا عبر الأديب عن حياة فرد أو حياة جماعة في صورة فنية ، فما يستطيع أن يفصل بين هذه الصورة وصورة المجتمع الذي يحيا فيه الفرد أو الجماعة ، وإلا كانت الصورة زائفة ، مكذوبا بها على الحياة والأحياء .

على أن الأديب — في نفوذ بصيرته ، ورقة مشاعره ، ورهافة إحساسه بمواطن الحق والخير والجمال — يمثل يقظة الوجدان ، وصفاء الروح ، وقوة الالتقاط لما في المجتمع من تيارات وخوارج ، فهو بخصائصه إنساني النزعة ، جماعي الاتجاه ، ولا بد أن يكون تعبيره عن مجتمعه تعزيزاً لأكرم ما فيه من مثل ، وتأييداً لما تتمخض عنه الطاقات الفكرية والقومية ، من معان رفيعة ، وأوضاع رشيدة ، في ممارسة الحياة .

ليس الأديب إذن بحاجة إلى من يحفزه حفزا إلى مناصرة مجتمعه فيما يهدف إليه ، ذلك لأنه مغمور بهذا المجتمع الذي يحتويه ، محوط بهتافاته وأشواقه وقصده إلى غاياته ، متأثر بكل ما حوله من قوى خلافة ، وانطلاقات جماعية بناءة ، فإذا جرد قلمه ليصور فإنما يجرده ليصور مجتمعه نفسه ، وإذا عبر فإنما يعبر عن روحه ، يستلهمه ويلهمه ، ويستوحيه ويوحى إليه .

والأديب في تصويره مجتمعه شأن غير شأن من يدرس قضية من القضايا ، عامدا إلى تجميع أسباب الدفاع عنها ، والتفنن في حمايتها بما يفترى به عليها ، فإن شأن الأديب أن يكون صادقا مخلصا في استشفاف ما يحول في نفسية مجتمعه من عوامل التطور ، وأن يؤمن أعمق الإيمان بأن الولاء للتقدم الاجتماعي في أمته فرض عليه ، ومتى صدر الأديب في عمله عن الصدق والإخلاص والإيمان فسيرجح العمل في ميزان الفن الأصيل . وكم من أحداث تاريخية غابرة ، وتطورات قومية سحيقة ، عبر عنها أدباء قدامى تعبير آفنيا في صدق وإخلاص وإيمان ، فلم تبق تلك الأحداث والتطورات الماضية في سجل التاريخ المأثور ، بقدر ما بقيت أعمال أولئك الأدباء القدامى في سجل الفن الرفيع .

ونحن في مجتمعنا المعاصر لا يعوزنا التكافل والتضامن والإحساس الجماعي بالمسؤوليات والتبعات التي يلقيها على عواتقنا عهدنا الجديد ، ولقد انطوت مسافة الخلف في وطننا بين الحاكم والمحكوم ، فتلاقت الدولة حكومة وشعبا على مبادئ وأهداف ، وكما وجد الأدباء أنفسهم مواليين من ذات أنفسهم لهذه المبادئ والأهداف ، في صدق وإخلاص وإيمان ، أوجبت الدولة على نفسها تقدير الأدب ، وتشجيع الأديب ، فلقد اتخذت من الوسائل أنجعها في تنمية المواهب الفنية وتعزيزها وإمدادها بما يزيكها ، ولم يكن بها في تحقيق ذلك ضئيلة بمال أو تكريم أو تأييد .

ولكن الأمر على أية حال ما برح مفتقرا إلى تدخل المشرع لحماية حقوق الأديب ضائعة ، ولتنظيم أوضاع في شأن الأداء الفني غير محكمة ، ولعل ذلك من أثر الرواسب التي لم تعالج في العهود الماضية في مختلف نواحي حياتنا العامة ، ونحن نعمل جاهدين على إزالة هذه الرواسب ما وجدنا إلى ذلك من سبيل .

كيف أصبحت قصصياً؟

نشأت في بيت أكثر ما فيه الكتب ، فقد كان أبي المرحوم د أحمد تيمور ، ولوعاً بجمع ما تمخضت عنه القرائح العربية في كل علم وفن ، لا يكاد يدع منها مطبوعاً أو مخطوطاً في الشرق والغرب ، ولعله كان بالمخطوطات أشد لوعاً ، وحرصه على اقتنائها أبعد مدى ، ومرت الأيام تباعاً ، و د الخزانة التيمورية ، التي تحتل الآن مكاناً كريماً من د دار الكتب المصرية ، تكبر ، وأنا أكبر معها ، وأزداد من تقديرها ، وكان أبي ينفق أطيب وقته بين حجراتها ، ويرصد أعظم جهده في سبيلها ، حتى لقد خيل لي — وهو يتشغل بين أصواتها ورفوفها — أنه قد غدا فيها كتاباً حياً ينطق بما بين دفتيه .

ولما اشتد عودى ، وأحسنتم القراءة والكتابة ، ألفيت أبي . يهدى إليّ مجلداً ضخماً من كتاب د ألف ليلة وليلة ، في طبعة مهيبة . محلاة بالتصاوير ، فما هي إلا أن أقبلت على الكتاب ، أسبح فيما حوى من حكايات شائعة ، وكنت أجمع من يرغب في الاستماع من عشيرة البيت ، فأعيد عليهم تلاوة ما قرأت ، ولعل السر في

إعجابي بـ « ألف ليلة وليلة » ، في تلك المرحلة من حياتي ، هو مشابهيها « للحواديت » ، وهى القصص الساذجة الخرافية التى استمعنا إليها من العجائز ، يسامرننا بها فى عهد الطفولة الأولى ، فكأننا كنا كـنت بقراءة « ألف ليلة وليلة » ، أستعيد سذاجة ذلك العهد المحبب الأنيس ، وما منا إلا من يشعر بحنين إلى بواكير أيامه ، وهو حديث عهد بالحياة . ولم يكن كل ما يعجبنا فى « ألف ليلة وليلة » مجرد شبيها بالقصص البطولية الساذجة ، فقد راقنا منها مع ذلك اتساع الخيال ، وخلاصة الأحداث ، وطرافة الصور ، والجو الشرقى الساحر الذى يمت إلى نفوسنا بأوثق الأسباب ، ذلك الجو الحافل بالمغامرات التى تهفو نفوسنا إلى مزاولتها ، نشرك الأبطال فيما يقومون به من أعمال ، وما يخوضون من أخطار : نرتفع مع الرخ إلى السموات العلى ، ثم نهبط من « وادى الشعابين » إلى « مغارة الموتى » ، وإذا نحن نفوذ منها إلى « مدينة النحاس » ، نهيم فى صمتها المرهوب ، ثم لا نلبث أن نشوب إلى الأهل والأحباب ، محملين بالذهب والفضة ، متحللين باللكلأء واليوافيت !

ولا ريب فى أن « ألف ليلة وليلة » ، مما يذكى فى نفس القارئ . موهبة التخيل ، ويمده بعناصر الخلق القصصى . ولم يكن عبثاً أن يقول « فولتير » : إنه قرأ ذلك الكتاب مرات قبل أن يجرى قلمه

بكتابة قصة ، وأنه تمنى أن يفقد ذاكرته ليستطيع أن يقرأ الكتاب من جديد بمثل اللذة التي قرأه بها أول مرة .

ولقد أثار كتاب د ألف ليلة وليلة ، ميل إلى قراءة أمثاله ، فأمدتني مكتبة أبي بما أطمح إليه . وأذكر أنه كان فيا قرأت يومئذ من كتب الأسفار ونوادر الأخباريين كتاب د إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، وكتاب د نفحة الين ، بما يزيل الهم والشجن ، وغيرهما من النظائر والأشياء .

وامتدت عيني إلى غير ما تحويه خزانة أبي من روايات عصرية مترجمة ، فوجدتني أجنح إلى إيثار القصص البوليسية ، أعني قصص الخيلة والجريمة ، وأذكر منها الآن روايات د نقولا كارتر ، و د شارلوك هولمز ، و د سنكلر . ففتنت أيتها فتنة بما يبيده الأبطال من ذكاء ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، وقدرة بارعة على التخلص من المآزق وكذلك أعجبت بما تدبر القصص من مفاجآت مثيرة تملك على القارئ انتباهه ، وتحمله على متابعة القراءة في شوق موصول .

وفي صيف من الأصياف ، وأنا مغمور بما قرأت ، وما وعيت ، من هذا اللون القصص الغربي ، سافرنا إلى الضيعة في الريف ، والحياة هنالك هادئة يتسع فيها وقت الفراغ ، والجو (١٣)

هنالك مهياً للتأمل والانطلاق في آفاق الخيال ، فألفيتني أخلو إلى
نفسى ، وأغلق الباب دونى ، وأجلس إلى أوراقى وأقلامى ، أدبج
قصة هندية الأحداث ، بطلها ضابط إنجليزى يحنى على فتاة وطنية ،
فينبرى أهلوها يثأرون لها ، وينتقمون من أساء إليها . وجعلت
للقصة عنواناً عظيماً ، هو : « الشرف الرفيع » . وما فاتنى أن
أرصع القصة ببنت « المتنبى » :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ولما أتممت تحرير القصة هرعت بها إلى أبى ، ورجوت منه أن
يبعث بها إلى إحدى الصحف لكي تنشرها باسمى ، وكانت سنـى
إذ ذلك لا تتجاوز الرابعة عشرة ، فألقى أبى على القصة نظرة خاطفة ،
ثم ابتسم لى ، وربت كتفى ، وقال :

حسننا كتبت ، وسأُنظر فيما رغبت فيه من نشر القصة .

وانقضت أيام ، وأنا أرتقب ظهور القصة العظيمة ، وطال
ارتقابى ، حتى ألهتنى عنها الشواغل وبعد حين صادفت
با كورتى فى المكتابة القصصية مسجاة فى زاوية من مكتب أبى ،
تشكو الصد والإعراض . فأدركنى عليها لإشفاق ، وهممت أن
أتناولها ، ولكن إكبارى لأبى منعنى أن أفعل ، فانتظرت حتى

لقيته ، وفتحتته في الأمر ، فطلب منى أن أعاود تجربة الكتابة مرة أخرى ، لعل أبلغ من التوفيق ما لم يتح لي في التجربة الأولى .
 وإذا كان أبى صاحب الفضل الأول في إذكاء موهبتي الكتابية بما يسر لي من المطالعة ، في صباى الباكر ، فإن الذى بعثنى على أن أكتب في جسد وتصميم هو شقيقى المرحوم د محمد تيمور ، إذ وجه موهبتي توجيهاً استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ، وكان يومئذ قد عاد من دفرنسة ، بعد أن قضى فيها ثلاث سنين ، يتزود من الأدب العصري الأوربي ما طاب له أن يتزود .

وشرع شقيقى يعالج فيما يعالج من ألوان الكتابة رسم ألواح قصصية ، أظهر ما فيها معالم حياتنا المحلية ، وأمهاة مشكلاتنا الاجتماعية . وكانت كتاباته في هذه الناحية فسهل نطاق الأدب العربى ، ونقلنا له من موضوعاته التقليدية المتوارثة إلى تسجيل ما يعتلج من آمال وآلام في نفسية المجتمع العصري ، داخل إطار قصصى .

ولبثت أرقب عن كشب شقيقى يعرض محاولاته في هذا الباب ، فإذا تحرك قلبى للبيان والتعبير ، ألفيتنى أوثر ذلك اللون الذى كان يسمى حينئذ « الشعر المنشور » ، أبث كتاباته ما يضطرم به وجدانى من عواطف ومشاعر وخطرات . ولم يكن ذلك

الشعر المشهور يخلو من وشائج هي في باب القصة أدخل منها في باب المقال . على أنى كنت في هذا الاتجاه متأثرا — لاشك — بما توهج في أفقنا الأدبي لذلك العهد من لوامع أدب المهجر ، بأقلام « جبران » و « الريحاني » و « نعيمة » ومن إليهم بمن زفتوا إلى الكتابة العربية أدبا عاطفيا إنسانيا جديداً في روحه ، يس من القارئ شغاف قلبه ، ويثير فيه كوامن عطف ورحمة وإشفاق .

وفي ذلك الوقت كنت أستشير في مطالعاتي بهدى شقيق ، فنصح لي فيما نصح بأن أطلع « حديث عيسى بن هشام » للأديب العربي الصميم « محمد المويدهي » ، وقصة « زينب » للكاتب الاجتماعي المفكر « محمد حسين هيكل » ، فلمحت فيهما مسحة تختلف عن الأدب « الرومانسي » الذي كنت غارقا فيه ، مسحة تهبط بالقارئ من سماء الخيال المجنح ، حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ، إلى الأرض التي تدب فيها ، فنرى الناس من حولنا بشراً مثلنا على فطرتهم التي خلقوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » هو المرحلة الثانية للقصة في الأدب العربي بعد « ألف ليلة وليلة » ، وقد نحا فيه مؤلفه منحى حديثاً ، فخياله واسع ، وسرده متمتع ، وشخصياته لا تخلو من لحكام في الرسم ، وإذا كان قد اقتفى أثر « المقامات » في بعض

أسلوبها ، فقد امتاز بأنه صاحب المحاولة الناجحة المبكرة لتصوير الأدب وصبغه باللون المحلي ، مع سموه عن الواقعية الساذجة .

أما « زينب » فهي أسبق عمل أدبي في العصر الحديث ، مكتمل للعناصر الأساسية للقصص الفني . ولا ريب في أن هذه القصة كانت مظهرآ لنزعة التجديد ، ووثبة الخلق ، فيها اتفانصة وجدانية وطنية ، وفيها معالجة لتصوير الحياة في رقعة كبيرة من هذا الوطن ، هي الريف ، فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور محلية ، وتجلت شخصيات شعبية أريد بها جميعا أن تحقق غرضا هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب في مستهل القرن الذي نعيش فيه . ذلك الغرض هو إنشاء أدب قومي السمات ، قومي الأحداث ، قومي الروح ، يتأكد به طابع القومية في التعبير والتصوير .

ولم تقف مطالعاتي عند الأدب العربي قديمه وحديثه ، ما ألف فيه وما ترجم إليه ، فقد كانت معرفتي بالإنجليزية والفرنسية قد نمت نمواً يمكنني من أن أقرأ الأدب الغربي في هاتين اللغتين ، وأرشدني شقيقى إلى قراءة ما كتب « موباسان » الفرنسي ، و « تشيخوف » الروسى في مجموعتهما القصصية . فقرأت لهما ، أو قل عببت من أقاصيصهما عبا ، فأما « موباسان »

فقد راقبتى منه قدرة على تصوير قطاعات كثيرة من الحياة مختلفة الألوان ، فيها بساطة وفيها صدق ، وفيها امتلاك لناصية الصياغة القصصية ، وفيها مهارة جمع الأطراف التى يبنى عليها العمل القصصى من أحداث وشخصيات . وأما « تشيخوف » فقد راعى منه أنه يصور مآسى الحياة فى ألواح فنية ناطقة ، لعلها لا تستكمل صياغتها القصصية بالمعنى الشائع للقصصة المحبوكة الأطراف ، ولكنها بضعة من الحياة فيها حرارة وفيها خفوق . ومع ما يبدو من بساطة الظاهر فى هذه الألواح فإنها تنطوى على معان عميقة ، وتحليل للنفس البشرية عجيب .

ويبدو لى أن تأثرى بما قرأت من أدب اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، قد أغضب على شيطان الشعر المنشور ، فإذا هو يتحلى عنى ، شكر الله له ما صنع ، إن كان لإنسان أن يطلب الشكر للشيطان ! وجرى قلبى بقصة قصيرة هى « الشيخ جمعة » ، وعلى أثرها كتبت قصة أخرى هى « يحفظ بشباك البريد » ، والحق أن قصة « الشيخ جمعة » نصيبتها من التصوير الوصفى أكبر من التأليف القصصى ، فضلا عن أن الواقعية فيها تكاد تكون هى العمل كله . والقصة الفنية إنما تكون مزاجا من واقع وخيال . على أن « الشيخ جمعة » لقي من القبول والاستحسان ما لم أتوقع ، إذ مس الموضوع

ناحية إنسانية في تصوير ذلك الشيخ الفطرى في نقاء سريره ، وفي فلسفته الساذجة التى تستعلى على مشكلات الحياة ، وكثيراً ما تتعقد المشكلات في وجه الإنسان ، فتتهفو نفسه إلى مثل تلك الفلسفة البدائية المريحة التى هى كالمرفأ تجنح إليه السفينة حين يكتنفها إعصار ، أو يعيث بها تيار . ولكن القصة التى أعدها مكتملة المزاج الواقعى الخيالى — أعنى مكتملة لعنصرى القصص النفسى — هى قصة « يحفظ شباك البريد » ، وموجزها سخرية خفيفة بأدعياء المغامرات الغرامية ، وبخاصة فى فورة الشباب . وهذه القصة أتيح لها أن تترجم بعد ذلك بسنين إلى الإنجليزية فى كتاب يضم نخبة من القصص فى مختلف البلاد ، ولعلها كانت طليعة ما ترجم من الأدب المصرى العصرى إلى لغة أجنبية . وربما كان السر فى اختيارها لتمثيل أدبنا المصرى القصصى وقتئذ أنها كانت موفورة الحظ من اللون المحلى الذى يجذب أنظار القارئ الأجنبى .

وبغنى القدر فى شقيق « محمد تيمور » سنة ١٩٢١ ، وهو من شبابه فى عنفوان ، وحوله هالة من الآمال التى تتألق ، ولا تعرف مصيرها من بعده ، أنخبو بموته ، أم تتاح لها حياة وبقاء ؟

حقاً ، لقد شعرت على أثر ارتحال شقيق إلى دار الخلود ، بانهايار ما كان يطمح إليه من نماء النبتة الجديدة ، نبتة القصة فى أدبنا

القوى الحديث ، تلك النبتة التي رواها بدمه ، وارتقب لها أن تزدهر .
كل الازدهار .

ورأيتني أضعف من أن أخلف شقيق الراحل على ما كان يبشر
به ، ويسعى إليه ، فأخذت إلى سكينه اليأس ، بعض حين . ولكن .
عجلة الحياة جعلت تدفع بي في طريقها الممدود ، لا يعينها من الأمر
إلا أن تستكمل دوراتها ، ولا تبالي من انقطعت به الطريق . . .
فأخذت جراح الفجعة تندمل وويداً ، وإن كانت الذكرى باقية .
بقاء الروح في الجسد الحي .

ووجدتني أنشط لبعض العمل ، فلبست ما تشعث من قواىء .
وخطوت على الدرب في تودة وحذر ، أنفض عن كتفي غبار
اليأس ، وأقصي شبح الإخفاق ، معوّلاً على نفسي ، مهتدياً بهدى شقيق .
الراحل . فكنت أكتب أقاصيصي مندفعاً يباعث من واعيى الباطنة
إلى استكمال ما كانت نفس شقيق تصبو إلى تحقيقه ، لو مد الله في
عمره . وكنت أحس أنى بهذا النشاط أكرم روح شقيق ، وأقرنها
واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ حتى كان قد تجمّع عندي ما يصح
إخراجه في مجموعة قصصية ، فسارعت إلى طبع كتابي الأول
«الشيخ جمعه وقصص أخرى» ، وأتبعته كتابي الثاني ، «عم متولى» .

— ٢٠١ —

ونفسي راضية عما أصنع ، وضميري مستريح إلى أنى أحاول أن أستبقى من شقيقى الراحل جوهر حياته ، أعنى ما كان يهدف إليه ويهتم به من إرساء دعائم الفن القصصى العصرى فى الأدب العربى .

وإذا أنا ألزم نفسى التجرد للكتابة ، لا أنتهى من مجموعة حتى أكون قد نسجت الخيوط لمجموعة أخرى ، وتراءت لى مشاهد الحياة ، وشخصيات الناس ، وأحداث المجتمع ، ولوامع الأفكار ، كأنما هى بضاعة قابلة للعرض فى مخيلتى الفنية ، داخل الإطار القصصى ، أو كأنما هى ألواح محشودة أمام عيني ، وعلى أن أتتقى منها ما أنقله فى حروف وكلمات .

وكان من الطريف أن يتحدث أصدقاؤى عنى بأنى أجالس منهم من أجالس ، وأتحدث إلى من أتحدث ، فلا يلبثون أن يروا سماتهم وقسماتهم وبعض خفايا نفوسهم فيما أنشر من أقاصيص ، وكأنى أذيع لهم أسراراً أو أصور منهم زوايا كانوا يصونونها عن العيون !

ولم أكن أبالى بهذا من الأصدقاء الظرفاء ، فقد شغلنى أن أجلو مرآة للحياة من حولى ، ولئن أعاش من خلق الله . فمن رأى فى تلك المرآة وجهه فلا تثريب علىّ ، بل لعل ذلك مما يزيدنى إيماناً وثقة بأنى لم أكذب فيما وصفت ، ولم أخفق فيما صورت . ولست

أنخفي أن هزة من الغبطة والزهو كانت تعرفني حين أعلم أن بعض من أصحاب عرف نفسه في معرض الشخصيات التي أضمتها ما أكتب من أقاصيص !

وفي خلال أربعين سنة ، أخرجت من كتي القصصية جملة تبلغ عدة تلك السنين ، منها ما ترجم إلى لغات شرقية ، ومنها ما ترجم إلى لغات غربية . ولقد كتبت القصة قصيرة ومطولة ، وكتبتها للقراء والمسرح ، واستلهمت في كتابتها روح العصر مرة وأحداث التاريخ مرة ، وطوفت بالمدينة أحياناً وبالريف أحياناً وبالبادية أخرى ، ومشيت في دروب الواقع خطوات ، وحلقت في آفاق الخيال شأواً بعد شأواً ، واستجبت لهوائف شتى من مسرات وأحزان ، وجلوت من سرائر النفوس ما استطعت أن أجلو ، وعالجت من مشكلات الحياة ما تيسر لي أن أهالج ... وكنت فيما أكتب أتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن عهد إلى عهد ، لا أجد عند مذهب أدبي بعينه ، ولا أقنع بلون من ألوان الأداء الفني أستمسك به لا أعدوه ، يحدوني في ذلك كله ما اكتسبت من خبرة بالوجوه ، ومن تجربة في المجتمع ، ومن دؤوب على الاطلاع في مختلف فروع الثقافة ، ومن رحلات في الشرق والغرب . ولا أنسى ما أفدت من سخط الناس على ما أكتب طوراً ورضاهم

— ٢٠٣ —

عنه أطواراً . ولعل أفدت من النقد والملاحظة أضعاف ما أفدت من الثناء والإطراء .

وأنا الآن في مرحلة أعالج فيها كتابة القصة ، وأوازن بين المرحلة الأولى ، مرحلة قصة يحفظ بشباك البريد ، التي كتبتها منذ أربعين عاماً ، مقتصرأ فيها على تصوير شخصية شاب من أدياء المغامرات الغرامية ، وبين المرحلة الحاضرة التي أعالج القصة فيها ، مستنفداً ما كسبت وما أفدت من طول المراتة ، ومعاناة الدرس ، ومن فهم لأصول القصة الفنية ، وضرورة استيفاء حظه من التحليل النفسي ، ومن التعمق في الزرع الإنساني الذي يمت إلى غرائز ثابتة تمثل كفاح البشر في معركة الحياة ، على مسرح الوجود .

وفي هذه المرحلة الحاضرة ، التي أستدير بها تلك المراحل السالفة ، أنصت إلى من يسألني :

كيف أصبحت قصصياً ؟

فأراني أفكر في السؤال ملياً ، ولا أملك إلا أن يكون جوابي هو أن أسأل نفسي في صدق وإخلاص :

هل أصبحت قصصياً حقاً ؟

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	الادب في السنين المائة الاخيرة
٥٠	عائشة التيمورية
٨٣	شوقي والمسرح العربي
٩١	حافظ و « ليالى سطيح »
١٠٢	طه حسين
١٠٦	توفيق الحكيم
١١٧	العقاد، كما أراه
١٢٥	محمد فريد أبو حديد
١٣٤	عزيز أباظة
١٣٨	خليل مردم
١٤٨	محمود طاهر لاشين
١٥١	محمد السباعي

الصفحة	الموضوع
١٥٨	زكى مبارك
١٧٢	إسماعيل مظهر
١٧٩	صديق شيبوب
١٨١	محمد مندور
١٨٤	أمين الخولى
١٨٦	مراد كامل
١٨٨	دور الأدب فى المجتمع
١٩١	كيف أصبحت قصصياً

رقم الإيداع ١٩٧٠ / ٣٢١٩

